القـــدس في الفـــولكلـــور والأساطير العربية

محمد رجب النجار*

* حصل على دكتوراه الفلسفة في الاداب الشعبية من جامعة القاهرة ١٩٧٦ .
يعمل استاذا بقسم اللغة العربية ـ جامعة القاهرة .

الملخص

على مر العصور تقترن القدس في الضمير الشعبي العربي بالوجدان الديني، ومن ثم الوجدان القومي كما لم تقترن مدينة عربية أخرى ـ باستثناء مكة والمدينة (الثالوث الجغرافي المقدس) ـ الأمر الذي انعكس صداه وترك بصماته ـ تأثيرا وتأثرا ـ في فولكلور هذه المدينة العريقة، وموروثها الأسطوري والتاريخي والأدبي والثقافي والفولكلوري وخاصة في مجال المعتقدات والممارسات الدينية الشعبية، فهي مدينة مقدسة بكل معايير الفولكلور الديني والجغرافي واللغوي جميعا.

غير أن البحث سوف يتوقف ـ من منظور اثنوجرافي فولكلوري ـ عند هذه المدينة المقدسة ـ موقعاً وموضعاً ـ لبيان مكانها ومكانتها في الفولكلوريات العربية والأسطوريات الشارحة أو الدينية التي نسجت حول هذه المدينة، وتوارثها (العوام والخواص) جيلا بعد جيل.

وهذا البحث يقوم ـ في مجمله ـ على محورين أساسيين هما:

* القدس في الأساطير والتاريخ الشعبي.
* القدس في الأدب الشعبي أو الشفاهي (الشعر الديني، أدب الجهاد والمقاومة، الحكايات الشعبية وألف ليلة وليلة، المسرح الشعبي المعروف بمسرح خيال الظل، الأدب البطولي والملاحم الشعبية العربية، والأغاني الشعبية).

١ ـ القدس في الأساطير والتاريخ الشعبي

من المسلم به، أن بيت المقدس ـ مسجدا ومدينة ـ يقترن في الضمير الشعبي العربي ـ على مر العصور ـ بالوجدان الديني، ومن ثم الوجدان القومي، كما لم تقترن مدينة عربية أو إسلامية أخرى باستثناء مكة والمدينة. الأمر الذي انعكس صداه وترك بصماته ـ تأثيرا وتأثرا ـ في فولكلور هذه المدينة، وموروثها الأسطوري والتاريخي، ومأثورها الأدبي، فضلا عن المعتقدات والممارسات الدينية الشعبية، فهي ـ مدينة بيت المقدس ـ ليست مدينة عادية، بل هي بقعة مقدسة، بكل مقاييس الفولكلور الديني، والجغرافي، واللغوي جميعا، فالمقدس ـ لغة ـ المنزّه، عما لا يليق، وهو المبارك، والطاهر، وبيت المقدس، أصله من القدس، وهي الطهارة والبركة، وبيت المقدس (بفتح الميم وسكون القاف) هو المكان الذي يطهّر من الذنوب، والبيت المقدّس (بضم الميم وفتح الدال المشددة) أي البيت المطهّر، وتطهيره إخلاؤه من الأصنام.

ومن المسلم به أيضا أن مدينة القدس قديمة قدم التاريخ، وقديما كانت تسمى يبوس نسبة إلى أهلها اليبوسيين، وهم بطن من بطون العرب، ومن ملوكهم (مليكا صادق) وهو أول من اختطها وبناها، وكان وديعا محبًا للسلام، ومن هنا جاء اسمها (سالم) وعرفت فيما بعد باسمها الكنعاني (أور ـ سالم) أو أورشليم، أي مدينة السلام، وإن لم يُقَدَّرْ لها أن تذوق السلام طيلة تاريخها، فقد توالى عليها الغزاة والفاتحون والمغامرون منذ أن استولى عليها داود من أيدي الكنعانيين سنة ١٠٠٠ ق.م واتخذها عاصمة له[١]. ثم خلفه ابنه الملك سليمان الذي بنى هيكلا أو حرما له على جبل موريا، وفي ذلك تنبئنا «الإسرائيليات» المتغلغلة في التراث العربي الديني وينبغي أن يُبْرَأَ منها[٢]، أن الله تعالى ـ كما يقول كعب الأحبار ـ قد أوصى إلى سليمان أن «ابن بيت المقدس، فجمع حكماء الإنس وعفاريت الجن وعظماء الشياطين ثم فرق الشياطين، فجعل منهم فريقا يبنون، وفريقا يقطعون الصخور، وفريقا يقطعون العمد من معادن الرخام، وفريقا يغوصون في البحر فيخرجون منه الدر والمرجان فعمل بيت المقدس عملا لا يوصف، ولبَّنه بالفضة وزينه بألوان الجوهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجدرانه، وجمع الناس وأخبرهم أنه «مسجد لله» وأنه هو الذي أمر ببنائه، وأن من انتقص من قدره، أو هدم شيئا منه. فقد حاد الله[٣]، وبهذا يرجع إلى أصلها الديني أو المقدس شرع الناس ينظرون إلى هذا البناء نظرة خاصة تتجاوز دوره من بيت تقليدي للعبادة إلى مسجد لله نفسه، ويروي المسعودي رواية إسرائيلية أخرى، مؤداها أن الله تعالى قال لسليمان بن داود حين فرغ من بناء هذا «البيت المقدس» سلني أعطك، قال: يارب، أسألك أن تغفر لي ذنبي، قال: لك ذلك. قال: يارب، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت ويريد الصلاة فيه، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد، قال: لك ذلك. قال: وأسألك من جاء فقيراً أن تغنيه، قال: لك ذلك. قال: وأسألك من جاء سقيما أن تشفيه، قال: لك ذلك[٤]، وبهذا يكون بيت المقدس مقدساً، فيه يجد الناس العزاء والغفران والثروة والشفاء.

وهو ماأكدته المعتقدات الدينية الشعبية اللاحقة كذلك، وحتى لا يكون ذلك الفوز بالغفران والثروة أخرويا فقط. فقد ذكر ياقوت الحموي ايضا في معجمه بعضا من المعجزات والكرامات التي تحقق ـ دنيويا ـ أحلام الناس البسطاء أو المجتمع الشعبي في العدالة والحق وذلك

في مجال حديثه عن فضائل بيت المقدس، ومنها المعجزة المتعلقة بالسلسلة، يروي الحموي: أن سليمان قد اتخذ في بيت المقدس أشياء عجيبة، منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة، ينالها صاحب الحق، ولاينالها المبطل[٥]. ويذكر القاضي مجير الدين الحنبلي (ت سنة ٩٠٠هـ) بعضا من أساطير القدس في كتابه (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) وخاصة مايتعلق منها بهذه السلسلة التي روى عنها الكثير من الاساطير[٦]، والتي تشير في مجملها إلى أنها كانت «حكما عادلا» بين المتخاصمين من الناس (اليهود خاصة) حول الحق والباطل، وأنها أي السلسلة كانت ترتفع وتنخفض طبقا لإشارات معلومة، وهناك أيضا بركة ماء في منطقة المسجد يبدو عليها بساط يمكن أن يطأه الإنسان، فإذا كان كاذبا هوت من تحته وأغرقته، وإن كان صادقا وقف عليها وحملته وهو على الماء، وهناك قرب الماء كلب مصنوع من الخشب، ولكنه ينبح على الذين يخدعون الناس.

وعند باب التوبة تذيع بعض الأساطير الشعبية أيضا، فمن أذنب ذنبا يصبح فيرى كتابة مكتوبة على باب داره، فكان يذهب إلى باب التوبة يستغفر ويصلى، وعلامة قبول توبته أنه كان يعود فيجد الكتابة قد محيت من على باب داره، وروى صاحب الأنس الجليل أيضا أن هناك طلسما مكتوبا على لوح في حائط مسجد القدس، فلا تقرب الأفاعي والحيات ذلك المكان لوجود هذا الطلسم، وإذا وجدت حية، أو أفعى، فلا ضير منها، ومن المؤكد أنها غير سامة. ومنها أن قناديل المسجد كانت تملأ وحدها ـ آليا ـ من السماء، ومن زيت ينزل من عين من عيون السماء لا يراها البشر، ولهذا عندما حاول بعض أولاد هارون إضاءة مصابيح المسجد بأنوار دنيوية احترقوا بها فورا.

هذا غيض من فيض مما رواه القاضي مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل[٧]، مما ينبيء عن نماذج وصور وأمثلة من الأساطير العربية التي نسجها الخيال الجمعي حول القدس ومقدساتها وقد تمثلها الوجدان الشعبي زادا نفسيا ودينيا، عاطفيا وتعويضيا، يعتصم به كلما حَزَبَهُ أمر من الأمور أو أضرّ به حيف مستعمر غاشم أو معتد غاصب.

وهو ـ أي هذا الكم الهائل من الأساطير والمعتقدات الشعبية ـ ماتردد ـ بعينه ـ في كتاب آخر هو كتاب «مثير الغرام في فضائل القدس والشام» وفي غيره من الكتب المماثلة ذات العنوانات الرومانسية الدالة سيكولوجيا ودينيا على مكانة هذه المدينة المقدسة، وخاصة في المجتمعات الشعبية، وما أكثر ماروى من أساطير حول كل جزء تقريبا في بيت المقدس، مسجد أو مدينة، من هذه الأساطير أيضا أن سفينة نوح طافت بالبيت الحرام الذي بمكة أسبوعا كاملا، كما طافت بالقدس أسبوعا آخر قبل أن تستوي على الجودي في مدينة الموصل بالعراق ـ كما تقول الأسطورة ـ ويروى صاحب الأنس الجليل أن السفينة لما بلغت القدس نطقت باذن الله وقالت: يانوح، هذا بيت المقدس الذي يسكنه الأنبياء من أبنائك، ولهذا لا غرو أن تؤكد الإسرائيليات المروية بعد ذلك ـ إذ تروي عن إبن عباس قوله: البيت المقدس بنته الأنبياء، وسكنته الأنبياء، مافيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي أو أقام فيه ملك. . كما جاء في الخبر أيضا، أم من صلى في بيت المقدس، فكأنما صلى في السماء. وهذا ماتؤكده أيضا المرويات المنسوبة إلى كعب، من أن جميع الأنبياء قد زاروا بيت المقدس تعظيما له، وهذا ماينتظر المؤمنين الصالحين أيضا أو بالأحرى مايجب أن يقوم به العامة من الباحثين عن الخلاص الأخروى، فقد روي عن كعب أيضا قوله: من زار

بيت المقدس شوقا إليه دخل الجنة، ومن صلى فيه ركعتين خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ومن تصدق فيه بدرهم كان فداءه من النار، ومن صام فيه يوما واحدا كتبت له براءته من النار. وهكذا يصبح بيت المقدس ـ عند العامة ـ رمزا للخلاص وملاذا للتطهر من الآثام والذنوب، وآملا ـ لا ينفد ـ في الغنى والجاه، الدنيوي والأخروي.

ولكن مدينة السلام، موقعا وموضعا، تصبح هدف الطامعين والمغامرين وقبله الغزاة والفاتحين على مر التاريخ، ففي سنة ٥٨٦ ق.م. هاجم نبوخذ نَصّر القدس، واستولى عليها، وسبى اليهود وأرسلهم إلى بابل. وظلت القدس طيلة القرون التالية تتقاذفها يد الفرس والكنعانيين، وفي كلتا الحالتين كانت الجاليات اليهودية المنتشرة في المنطقة تسبى وتؤخذ لقيامها بأعمال الجاسوسية والاستغلال الدنيء، حتى زحف إليها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م. ثم حكمها من بعده البطالمة والسلوقيون، وفي عهد الرومان ولد السيد المسيح في بيت لحم. ولعل أقسى ماأصاب القدس من ضربات كان على يد الرومان إثر الثورات الداخلية وأعمال الشغب التي كان يقوم بها اليهود من آن لآخر، ومنها الثورة التي أخمدها الإمبراطور أدريانوس عندما جاء إلى القدس سنة ١٣٥م. لإخمادها، حيث أزال أيضا كل ماكان باقيا بالمدينة من معالم أثرية لليهود والمسيحيين على السواء. ثم أعاد بناء المدينة على نمط وثني وأطلق عليها إسم إيليا كابيتولينا، وأقام فوق الجلجلة وقبر السيد المسيح هيكلين وثنيين، نصب فوقهما تمثالي الإلهين الوثنيين: المشتري والزهرة. (من الطريف أن ثمة تحذيرا أسطوريا أورده، الحموي، في معجم البلدان منسوبا إلى كعب الأحبار، حيث قال: لا تسموا بيت المقدس إيلياء، ولكن سموه باسمه، فإن إيلياء إسم إمرأة هي التي بنت المدينة)[٨]. ومنذ ذلك التاريخ، وبناء إيليا، لم يعد لليهود في القدس إسم يذكر[٩].

أما بالنسبة للمسيحيين، فتذكر كتب معاجم البلدان وكتب فضائل البلدان[١٠]، وتراجم الأمصار وأمهات كتب التاريخ الذائعة في التراث العربي المبكر عددا كبيرا من الأساطير حول مدينة القدس، وكانت سببا في دخول الإمبراطور قسطنطين الدين المسيحي، أو كانت سببا في قيام أمه الملكة «هيلانة» بزيارة القدس سنة ٣٣٥م وبنائها كنيسة القيامة فوق ماعرف بقبر السيد المسيح، وهي الملكة التي استخرجت الكنوز والدفائن أي الآثار الثمينة، بمصر والشام، وصرفتها في بناء هذه الكنيسة. التي وصفها المسعودي (ت ٣٤٦هـ) بأنها الكنيسة العظمى ببيت المقدس عن النصارى[١١] وفي ضوء المصادر التاريخية يتبين للباحثين أنه لم يكن يوجد ببيت المقدس ـ إبان القرن الرابع الميلادي ـ من آثار معمارية غير كنيسة القيامة. وفي منتصف القرن السابع الميلادي، سنة ٦٣٦م (=١٥هـ) سلمت مدينة القدس ـ وهي التسمية العربية لبيت المقدس ـ زمامها للخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وفتحت له أبوابها، فدخلها وأمّن أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأعطاهم عهدا بذلك وهو المعروف (بالعهدة العمرية) وهذه هي المدينة الوحيدة التي تحظى بهذا الشرف إبان عصر الفتوحات الإسلامية. فتسلمها الخليفة الراشد شخصيا. ومما يذكر في هذه المناسبة، أن بطريرك بيت المقدس اشترط على الخليفة عمر بن الخطاب عدم سكنى اليهود في القدس فوافق الخليفة على ذلك.[١٢].

بهذا تصبح القدس ملتقى الأديان الثلاثة، وتتعزز مكانتها في نفوس المسلمين بعد أن وصف

القرآن الكريم بيت المقدس أكثر من مرة، مؤكدا أنه المكان المبارك، الذي يتبارك به زائروه، ودعا الرسول محمد (ص) المسلمين إلى زيارته مؤكدا «أنه لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس» (ربما كان هذا هو الحديث الوحيد الصحيح الذي ورد في الصحيحين، وما عداه من أحاديث أخرى، فهي إسرائيليات أو أحاديث موضوعة) ويروى أيضا أن الصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في غيره. . ويتمكن حب هذه المدينة في وجدان المسلمين وقلوبهم حينما تكون هي البقعة الجغرافية المقدسة التي يختارها الله لحدث عظيم له قداسته الكبرى عند المسلمين، على اختلاف ديارهم وثقافاتهم، ذلك الحدث المقدس هو الإسراء والمعراج، ولم يكن اختيار بيت المقدس محض مصادفة جغرافية، ولكن لأن البيت المقدس ـ في المعتقد الديني الشعبي ـ هو أقرب بقعة في الأرض من السماء. . وأيا ما كان الأمر، فإن هذا الحادث العظيم، حادث الإسراء والمعراج، قد سجلته العقلية الشعبية بأسلوبها الذي يجمع معظم وسائل التعبير في أثر أدبي واحد كما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الحميد يونس[١٣] وقد رأت فيه ـ العقلية الشعبية ـ حدثا إعجازيا كبيرا يضاهي ما نسب إلى موسى وعيسى من معجزات كبرى.

وفي ضوء هذا الحدث العظيم أيضا نسج الخيال الشعبي أكبر قصة دينية شعبية، هي قصة الإسراء والمعراج التي صيغت مرة نثرا، ومرة شعرا دينيا شعبيا.

وشيئا فشيئا يمتزج قدر من أساطير اليهود أو (فولكلور الأرض المقدسة) التي هي في الأصل خليط من الأساطير البابلية والكنعانية والمصرية القديمة بالقصص الشعبي الديني العربي بعد الإسلام فيما سمّي بالإسرائيليات، ويعنينا منها هنا ما يتعلق بالقدس ومقدساته. . فإذا الصخرة المقدسة في بيت المقدس ـ في ضوء الأساطير المنسوبة إلى هذه الصخرة ـ هي أول حرم ديني وأول مكان مقدس للعبادة عند يعقوب[١٤] وهي أول بيت مقدس عند دواد، فقد روى عن أبي بن كعب قوله: أوحى الله تعالى إلى دواد: ابن لي بيتا، قال: يارب. وأين من الأرض؟ قال: حيث ترى الملك شاهرا سيفه، فرأى دواود ملكا على الصخرة واقفا وبيده سيف إلى آخر هذه الأسطورة التي تفسر «بيت أيل» أو بيت الرب، ذلك المكان البالغ في القدم الذي ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون[١٥].

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع على أشدّه بين الحكام العرب. واتباعهم من الخاصة وفقهائهم حول مكانة القدس، ومقدساتها، ومدى تأثير ذلك كله على مكانة مكة والمدينة، فإن العامة وقصاصهم ووعاظهم يتنافسون في تمجيد بيت القدس، مدينة ومسجدا، ويجدون في «المرويات الدينية الشعبية» أو الإسرائيليات مادة ثرية تؤكد هذه المكانة العظمى التي احتلتها القدس في قلوب المسلمين، وتتجاوز هذا التناقض الديني السياسي الذي وقع فيه الخاصة، واخترع الخيال الشعبي من الفضائل ما يجعل من بيت المقدس معادلا أو مكافئا شرعيا لسائر المدن الاسلامية المقدسة، ولاسيما مكة والمدينة أقدس مقدسات المسلمين، فينسب إلى أبي ذر قوله: قلت لرسول الله (ص) أي مسجد وضع على وجه الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: البيت المقدس، وبينهما أربعون سنة. وينسب إلى الفضيل بن عياض قوله: لما صرفت القبلة نحو الكعبة، قالت الصخرة: الهي لم أزل قبلة لعبادك حتى إذا بعثت خير خلقك صرفت قبلتهم عني. قال: أبشري فإني واضع عليك عرشي، وحاشر إليك خلقي، قاض عليك أمري، وناشر منك

عبـادي»[١٦] ولهذا لا غـرو أن تكثر الأسـاطير والمـرويات حـول هذه الصخـرة، وما يـرتبط بهـا من معتقدات وممارسات وطقوس دينية وشعبية وخاصة ما يتعلق منها بآداب الزيارة والأدعية الخاصة بها واستحباب الصلاة فيهـا، وقد ذكـر أن هذه الصخـرة السوداء ـ وهي بـارتفاع قـامة الإنسـان ـ من الجنة، وأنها تحوّل يوم القيامة مرجانة بيضاء ـ وتشير الأساطير أيضا إلى أن هذه الصخـرة كانت أول شيء حسر عنه بعد الطوفان. كما تشير إلى أن الماء الذي خـرج من أصل هـذه الصخرة هـو من مياه الجنة ذاتها، لأن صخرة بيت المقدس وضعت في الأصل على نهر من أنهار الجنة.

كما تشير كذلك إلى أن البلاطة السوداء الكائنة بجوار الصخرة، هي البلاطـة التي على بـاب الجنة. ولهذا كله، فقد بادر عبد الملك بن مروان ببناء قبة فوق هذه الصخرة ومسجدا يعتقد العامـة أنه سوف ينفخ فيه في الصور يوم القيامة، ومن فوقها ـ الصخرة ـ ينادي المنادي يوم القيـامة. ولأنها البقعة المقدسة، الطاهـرة ـ منذ الأزل وإلى الأبـد ـ فسوف يكـون إليها المحشر ومنهـا المنشر، وتقاد الجنة يوم القيامة إليها ومنها يتفـرق الناس إلى الجنـة أو الى النار[١٧] كـما تقول المعتقـدات الشعبية، فهي إذن موضع الصراط.. ويذكر ناصر خسرو الرحالة الفارسي في كتابه المعروف سفرنامه عندمـا زار بيت المقدس: أن العامة تعتقد أن سهل «الساهـرة» ـ وهو أحـد سهول بيت المقـدس ـ سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا ـ كما يقـول ناصر خسرو ـ يحضر إليـه خلق كثيرون من أطـرف العالم، حتي يموتوا، فإذا جاء وعـد الله كانـوا بأرض الميعـاد.. »[١٨] وهذا يعني أن القـدس ـ على المستـوى الديني والشعبي ـ هي أرض المحشر والمنشر، ولهذا لا غـرو أن يوصى آدم بـأن يدفن بهـا، وكذلـك اسحق، وابراهيم، وحمل يعقوب من أرض مصر حتى دفن بها، وأوصى يـوسف حين مـات بأرض مصر أن يحمل إليها، وإليها هاجر ابراهيم عليه السلام، وفيها كلم عيسى الناس في المهـد صبيا[١٩] وبيت المقدس ـ كما يقول إبن عبد ربه صاحب العقد الفريد ـ مربط البراق الذي ركبـه النبي محمد (ص) ليلة أن صعد إلى السماء، والقبة التي عرج منها أيضا، والقبـة التي صلّى فيهـا بالنبيـين، وذكر كذلك أن الصراط سوف ينصب يوم القيامة ـ بيت المقدس[٢٠].

وهذا دور مستقبلي آخر للمدينة، يتعلق بيوم المعاد والحساب، وكـونها ـ تبعا لـذلك ـ مكـان تجمع الأجناس البشرية، وكونها ـ كـذلك ـ مكـان الملحمة الكـبرى ضد الـدجال. الـذي يُمنع من دخولها، ويهلك يأجوج ومأجوج دونها طبقا للمرويات أو المعتقدات الشعبية السائدة، فقد روى عن كعب الأحبار قولـه «معقل المؤمنـين أيام الـدجال البيت المقـدس، يحاصرهم فيـه حتى يأكلوا أوتـار قسيهم(!) من الجوع، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتا من الصخرة، فيقـولون هـذا صوت رجـل شبعان، فينظرون فإذا عيسى بن مريم، فإذا رآه الدجال هرب منه، فيتلقاه بباب لدّ فيقتله»[٢١].

كما يقول ياقوت الحمـوي، وطبقا لمـا رواه المقدسي صـاحب كتاب مثـير الغرام» منسـوبا إلى كعب الأحبـار ووهب بن منبه من أسـاطير وقصص شعبيـة وإسرائيليـات، مؤداهـا أن أسـوار بيت المقدس ـ آخر الزمان ـ من أسـوار الذهب والفضـة البيضاء، ولكنـه، أعني شهاب الـدين المقدسي مؤلف الكتاب، يعود فيستدرك قائلا «.. قاتـل الله القُصَّاصَ الـوضَّاعـين، كم لهم من إفك عـلى وهب وكعب، ولا شك في فضل هـذا المسجد ولكنهم قـد غلوا[٢٢]» إن هذه المغـالاة، والمبالغـات سمـة من سمات الخيـال الشعبي، ترحب بهـا وتدعـو إليها العقليـة الشعبية. وهي سمـة استغلهـا قصاص العامة ووعاظهم إلى أبعد الحدود. الأمر الذي أثار حفيظة كثير من فقهاء الخـاصة، وعـلى

رأسهم ابن تيمية ـ كما سنرى وشيكا لما تنطوي عليه بعض هذه المعتقدات من وثنيات. وعلى الرغم من أن حادث الإسراء برسول الله (ص) من مكة إلى القدس، ثم معراجه من القدس إلى السماء موثقان توثيقا قرآنيا لا يأتيه الباطل من بين يديه، فإن الخيال الشعبي، بوساطة القُصَّاص الشعبيين ووعاظ العامة، ورواة الاسرائيليات، وقد وجد في حديث الإسراء والمعراج معينا قصصيا لا ينضب، حتى قال الإمام الذهبي عنه «إنه أصبح أشبه بأحاديث القصاص» كما في مقدمة كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) وهذا صحيح [٢٣]، فهناك الآن عشرات القصص الشعبية المطبوعة عن الإسراء والمعراج، ظلت رائجة بين العامة رواجا عظيما حتى سنوات قليلة خلت.

بل لقد استلهم الحرفيون والفنانون الشعبيون كثيرا من «موتيفاتها» المعروفة، ومنها البراق أو الحصان المجنح الذي استقله النبي محمد (ص) في هذه الرحلة الإعجازية. . وتشير المعتقدات الشعبية أن صخرة بيت المقدس ـ ولأنها المقدسة ـ فقد عرج بالنبي من فوقها، في رحلته السماوية. وتؤكد بعض المعتقدات أن القدس هي قلب العالم، أي مركز العالم ويترتب على ذلك أن يكون للقدس ذاتها قلب أو مركز، وقيل إن مركز القدس هو كرة بيضاء موجودة في كنيسة القيامة يطلق عليها العوام اسم «نص العالم» أي نصفه وقيل إن الصخرة الشريفة هي المركز[٢٤]، ومن الآثار الباقية في بيت المقدس، والتي يعتز بها المسلمون حتى اليوم ـ حائط البراق الذي يبلغ طوله نحو ثلاثين مترا، وهو الجدار الذي كان الرسول (ص) قد ربط فيه براقه عندما صعد به إلى السموات العلا، ومن ثم فقد سمى البراق. . وهذا الحائط هو الذي استولى عليه اليهود ـ أخيرا ـ وأطلقوا عليه اسم حائط المبكي، على اعتبار أنه حائط هيكل سليمان.

ويؤمن المجتمع الشعبي العربي، على اختلاف أديانه، بأن بيت المقدس، وما حوله، هو أرض مباركة بأمر الرب، ولهذا لا غرو أن يسندوا إلى كل بقعة هناك كرامة أو اعتقادا أو طقسا دينيا شعبيا يؤمنون به، ويمارسونه (عدد الأماكن المقدسة في القدس بلغت مائة وتسعة وثلاثين مكانا) ويكفي أن نشير هنا ـ عدا ما ذكرناه من قبل ـ إلى معتقدات العامة في بئر ورقات الجنة، وعين سلوان والنبع، وبئر أيوب، أما بوابات المدينة، فَحَدِّثْ عنها ولا حرج (مثل باب الزاهر أو الساهور أو الزهور، وباب العمود، وباب النبي داود والباب الذهبي بمدخليه (الشمالي ويسمى باب التوبة والجنوبي يسمى باب الرحمة) ويربط المسلمون اسْمَيْ البابين بقصة آدم وحواء وبعض أساطير الخلق والتكوين. ويقول بعض أصحاب الأديان السماوية إن هذا الباب سيفتح من جديد عند قيام الموتى يوم الحساب. ويعتقد اليهود أن الأرواح ستعبر باب التوبة للذهاب إلى الجنة، في حين يسلك الآخرون باب الرحمة للذهاب إلى النار، ويقول المسيحيون إن السيد المسيح دخل القدس من هذا الباب، يوم أحَد الشعانين، وكانوا يجرون في كل عام، يوم أحد الشعانين، احتفالا يعبرون خلاله من الباب الذهبي حاملين سعف النخيل تخليدا لتلك الذكرى، وقد أصبح الاحتفال يجرى عند باب «ستنا مريم» بعد أن أقفل الباب الذهبي في أواخر الحروب الصليبية[٢٥].

يروى أيضا ياقوت الحموي ـ بعد أن يقدم وصفا معماريا رائعا لقبة الصخرة وما يرتبط بها من قباب أخرى مثل قبة المعراج وقبة السلسلة ـ أن هذه القبة، هي التي ينبغي أن تزار، فعلى طرفها أثر قدم النبي محمد عليه السلام[٢٦] ويروى ناصر خسرو، في رحلته المعروفة «سفر نامة» أن في مدينة

القدس صخرة يقال عليها آثار سبع أقدام، يعتقد العوام أنها لاسماعيل عليه السلام، وكان قد مشى عليها طفلا ـ حين كان بصحبة أبيه ابراهيم في القدس، وهذه هي آثار أقدامه ـ باقية كأثر مقدس عند المسلمين(٢٧).

ويذكر لنا الواسطى صاحب كتاب فضائل بيت المقدس كثيرا مما كان يجري على ألسنة العوام ـ أي على المستوى الشعبي ـ من مثل «لما قتل الحسين بن علي لم ترفع ببيت المقدس حصا إلا وجد تحتها دم»(٢٨) يؤكد ذلك، فيما يزعم الناس، أن المهدي المنتظر سينزل في بيت المقدس، ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. وذكر ـ أيضا ـ أن كثيرا من الفقهاء والزهاد والمتصوفة والأولياء المسلمين قد أظهروا تعلقا خاصا ببيت المقدس مثل الامام الشافعي وسفيان الثوري، وابراهيم بن أدهم، وبايزيد البسطامي وبشر الحافي، وابن عربي، والسهر وردي والطرطوشي وذي النون المصري، وغيرهم ممن جاءوا لزيارة بيت المقدس، فطاب لهم المقام واعتكفوا في الصخرة زمانا، يطول أو يقصر، وعلى نهجهم سار الغزالي الذي كتب أهم مؤلفاته وهو معتكف في الصخرة سنين طوالا.. والمسألة من وجهة نظر العامة، كان لها وجه آخر، فقد نظروا إلى هؤلاء المتصوفة والزهاد باعتبارهم رموزا روحية مباركة، وأولياء وأقطابا مباركين، قادرين على حراسة المدينة وحمايتها. وحمايتهم معها، وقد صاغ الخيال الشعبي قصصا كثيرة حول هؤلاء المتصوفة والأولياء لتأكيد كراماتهم ونفوذهم الروحي، والمادي أيضا. وقد تداخل هذا القصص الديني، مع قصص الأنبياء وخوارقهم، بدءاً بقصص إبراهيم والنمرود، أو علاقاته الزوجية بسارة وهاجر، وقصة الذبيح، ثم قصص داود واختراعه الدروع (واكتشافه الحديد) وسليمان الحكيم وأساطيره مع بلقيس ـ وهي نصف إنسية ونصف جنية ـ وقصص نوح والطوفان، وقصص عوج بن عنق، ذلك الكائن الأسطوري الذي أدرك زمان نوح وحصل الطوفان في عهده وكان عمره يومئذ ثلاثة آلاف وستمائة سنة، كذلك كان مفرطا في الطول لدرجة أنه كان يتناول الحوت من قاع البحر فيشويه في عين الشمس!! وقد عاش حتى لقى مصرعه الأسطوري على يد موسى النبي، صاحب القصص الأسطوري مع الخضر ـ عند العامة ـ وصراعه الديني ـ المليء بالخوارق والمعجزات ـ مع فرعون، وصراعه العسكري مع العماليق.. الخ.

وكذلك قصص إدريس، والنبي لوط، والنبي أيوب رمز الصبر في التراث الشعبي العربي (على نحو ما ورد في الخطاب القرآني أيضا) وقصص مريم وميلاد المسيح وموته.. الخ. ومعظم هذا الإرث القصصي والأسطوري، قد ارتبط ببيت المقدس، واتخذ منها مسرحا ـ جعرافيا وتاريخيا وحضاريا واجتماعيا ودينيا ـ لأحداثه ووقائعه، على نحو ماروت كتب الحديث والتفسير وقصص الأنبياء وتاريخ الرسل والملوك وكتب البدء والخلق، وعجائب الموجودات وغرائب المخلوقات، ومعاجم البلدان وفضائل البلدان ومصادر التاريخ وكتب التراجم، وعلى رأسها مؤلفات الطبري والمسعودي والمقدسي والقرطبي والقزويني وابن كثير وغيرهم كثير. ينسب إلى شمس الدين المقدسي (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم أنه قال «كنت يوما في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بهرام بالبصرة، فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت: أي بلد أجلّ؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أطيب؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أحسن؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أكثر خيرات؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أكبر؟ قلت: بلدنا، فتعجب أهل المجلس من ذلك، وقيل:

أنت رجل محصّل وقد ادعيت مالا يقبل منك. . قلت: أما قولي أجل فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها. وأما طيب هوائها فإنه لاسمّ لبردها ولا أذى لحّرها، وأما الحسن فلا يرى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها، وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبل. . وأما الفضل فهي عرصة القيامة ومنها النشر وإليها الحشر، وإنما فضلت مكة بالكعبة والمدينة بالنبي (ص) ويوم القيامة تزفان إليها. فتحوى الفضل كله، وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها، فأي أرض أوسع منها؟ فاستحسنوا ذلك الجواب وأقروا به»[٢٩].

هذا إذن رأي العامة وجمهور الخاصة في بيت المقدس، مدينة ومسجدا. . ولنا أن نتصور كم الهول المريع والفزع الفظيع الذي انتاب المجتمع الشعبي العربي والإسلامي عندما سقطت القدس في براثن الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م حيث «وضع الفرنج السيف في المسلمين أسبوعا، والتجأ الناس إلى الجامع الأقصى فقتلوا فيه ما يزيد على سبعين ألفا من المسلمين. .

وجعلوا الصخرة والمسجد الأقصى مأوى لخنازيرهم، ولم يزل في أيديهم حتى استنقذه منهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م[٣٠] ومن المؤكد أن احتلال الفرنج للقدس إحدى وتسعين سنة قد زاد من تعلق المسلمين عامة، والمجتمع الشعبي العربي خاصة بالقدس ومقدساتها فقد اعتبر المسلمون سقوط القدس ـ دون سائر المدن الإسلامية المحتلة ـ أشد ما ابتلى به الإسلام، ومن ثم فقد بات احتلال القدس ـ في نظرهم ـ احتلالا للإسلام ـ الأرض والإنسان والمعتقد ـ كما أصبح تحريرها تحريرا للإسلام، ومن ثم فقد غدا تحرير بيت المقدس ـ أمام المجاهدين المسلمين ـ حافزا روحيا ورمزا قوميا ومحورا لاستثارتهم عسكريا، الأمر الذي انعكس جليا في تراثنا الأدبي إبان تلك المحنة، داعيا إلى الجهاد، يستوى في ذلك ـ الانعكاس ـ الأدب الرسمي والأدب الشعبي، كما سنرى وشيكا، كما انعكس جليا أيضا في تراثنا الثقافي، ولهذا فليس محض مصادفة أن يزدهر التأليف فيما عرف باسم فضائل البلدان. . وتحديدا فضائل بيت المقدس ـ المدينة ومقدساتها ـ باعتبارها ردة فعل ثقافية تجاه حملات الصليبيين المستمرة والمستميتة على أرض الإسلام وهذا يعني أنها كانت عاملا مهما في تطور أدب الفضائل (فضائل البلدان) ووظائفه. . وهو ما انتبه إليه ـ في اقتدار ـ المستشرق الروسي الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكي ـ في مجال حديثه عما أسماه الأدب الجغرافي المرتبط بفلسطين وبلاد الشام، وعلى رأسه أدب فضائل القدس، الذي رأى أنه مرتبط ارتباطا وثيقا ـ في جميع مراحله ـ بما أسماه «**حركة التحرير**» التي ترجع إلى عهد صلاح الدين، واستمرت حتى نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[٣١] ولما كان مفهوم التحرير في العصور الوسطى مرتبطا بالنزوع الديني أساسا ـ فكانت الحروب خلالها حروبا دينية، أي تتخذ من الدين تيارا لتحقيق مطامع سياسية واقتصادية تحت اسم «الجهاد» أو «الصليب» أو «الكفار» أو ماشابه ذلك ـ فقد كان طبيعيا أن يتنامى إيمان المجتمع الشعبي بالمعتقدات الشعبية التي تنافى أحيانا الدين الصحيح (الرسمي)[٣٢]. ومنها تقديس المكان وإضفاء المزيد من الكرامات والمعجزات والخوارق عليه، ومنها ازدهار التصوف الشعبي والاعتصام بأقطاب التصوف، ودراويشهم، وأوليائهم بحثا عن البطل المنقذ أو المخلّص، ومنها الإيمان بالسحر وأعمال الشعوذة، وذيوع الرؤيا الخرافية. . الخ.

وكان من جراء ذلك أن تفشى بين العوام والخواص جميعا إيمان خرافي أدى إلى رواج الكثير من الأباطيل والترهات والخرافات التي تتعلق بقدسية المكان، فكان أن أضفى ذلك الإيمان بظلال وثنية كثيفة على ممارساتهم التعبدية ومعتقداتهم وطقوسهم وشعائرهم، على نحو لافت للنظر، مما أثار ـ بلا شك ـ حفيظة علماء المسلمين والفقهاء الرسميين. فأقاموا النكير على العوام ـ خاصة، ورأوا في ذلك تجاوزا للحدود الحقيقية التي رسمها الإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ لقدسية القدس المقدسة، ويعزون ذلك إلى «بعض الجُهَّال» على حدّ وصف ابن تيمية، من الوعاظ وأهل المدينة الذين يروجون لهذه الخرافات والترهات والأباطيل، وذلك في رسالته الموسوعة «قاعدة في زيارة بيت المقدس»[٣٣].

ومن المنظور الديني نفسه، يحذر ابن هشام الأنصاري النحوي المعروف (ت ٧٦١هـ) في كتابه «تحصيل الأنس لزائر القدس» المسلمين بقوله: «أعلم أنا رأينا بالمسجد الأقصى أمورا يذكرها أهل البلد. يغرون بها العوام ورعاع الناس، ولا حقيقة لها، فمنها مكان يزعمون أنه مكان الميزان الذي يوزن فيه الأعمال، ومكان آخر بالقرب منه يزعمون أنه الصراط، وكلاهما في أواخر بسطة الصخرة من حدها القبلي. ومنها مكان بالبسطة المذكورة، يزعمون أن به اجتماع أرواح العباد، وهو سرداب تحت الأرض. ومنها سكين ملصقة بالأرض بالقرب من الصخرة، يزعمون أنها التي أراد الخليل عليه السلام ذبح ولده بها، ومنها أنهم زعموا أن عرش بلقيس هو دكة المؤذنين، وأن الباب البحري من أبواب الصخرة هو باب الرحمة. وذلك مشهور عندهم، يعرفه خاصتهم وعامتهم وكل هذه أكاذيب وترهات، حمل على القول بها قلّة الدين، وإرادة أكل أموال الناس بالباطل. . الخ، ويمضي ابن هشام على هذا النحو معدّدا ترهات العوام والخواص[٣٤].

ويحمل بعض كتاب فضائل القدس حملة شعواء على الوعاظ والقصاص الذين ينقلون حكايات غير معقولة (خرافات / خوارق / معجزات / كرامات) عن كعب الأحبار ووهب بن منبه فيقول صاحب: «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام»: قاتل الله القصَّاص الوضّاعين كم لهم من إفك على وهب وكعب» والحق أنه لا يمكن إعفاؤهما، فهما من أصل يهودي، ولهم مرويات تاريخية ودينية ـ هي أسطورية بطبيعتها وبزمانها، والحق أنهما ـ شئنا أم أبينا ـ أكبر وأقدم مصدرين للإسرائيليات والأساطير الشعبية، العربية والإسلامية، وكان كل منهما راوية إخباريا، وقصصيا بارعا من الطراز الأول (أقدم مصدر عربي مدون، بعد القرآن هو كتاب التيجان لوهب بن منبه) وأيّاما كانت طبيعة هذه الثورة الدينية التي أعلنها الفقهاء وعلماء المسلمين على قصاص العامة.

وبالغاتهم، باعتبارهم «يأخذون الحديث منا شبرا، فيجعلونه ذراعا «على حد تعبير ابن الجوزى[٣٥]، وعلى الرغم من كونهم نجحوا ـ نسبيا ـ في تأليب السلطة والسلطان على هؤلاء القصاص وعلى الرغم من كونهم نجحوا كذلك في استصدار قرار جعل من واجبات المحتسب «أن لايدع الناس يجتمعون عند القصاص الجهال الذين يشحنون صدور العامة بالأباطيل» فقد كانت سوق القصص نافقة كأعظم ماتكون السوق. لأنهم يبيعون بضاعة مشتهاة عند العامة في كل زمان ومكان «فالحديث لهم عن جمل طار أشهى إليهم من الحديث عن جمل سار، ورؤيا مرية آثر من رواية مروية» على حد تعبير المقدسي[٣٦] في البدء والتاريخ، إنها الرغبة الإنسانية الكامنة في معرفة المدهش والخارق والعجيب.

وأيا ماكان رأي الفقهاء في العامة «الجهال» والقصاص والمذكرين والوعاظ «الجهال»، فإن الذي يعنينا هنا أن نؤكد على مايلي:

١ ـ أن المعتقدات الشعبية التي يؤمن بها المجتمع الشعبي لايمكن إلغاؤها بقرار سياسي أو إداري أو حتى فتوى شرعية، بسهولة، ذلك أنها متغلغلة في وجدانهم حتى النخاع.

٢ ـ لا جدال في أن كثيرا من هذه المعتقدات الشعبية حول القدس ومقدساتها قد ازدادت إبّان الحروب الصليبية، لحوافز سياسية داخلية وخارجية، غايتها تحقيق استشارة شعورية، ومخاطبة الوجدان الديني في نفوس العرب والمسلمين. ابتغاء استخلاص القدس ـ بؤرة التفكير الإسلامي الجماعي آنذاك ـ وتحريرها من أيدي الفرنج، ثم هي فرصة ثمينة لإعادة بناء المدينة وتعميرها بعد الحرب، وذلك عن طريق إضفاء المزيد من أسباب القداسة على المدينة، بعد ترجمتها إلى معتقدات وكرامات وخوارق ملموسة، تغري عامة المسلمين وتجذبهم إلى زيارة المدينة ـ كما هي عاداتهم ـ للمشاركة العملية في الطقوس المقدسة التي تقام لجمع التبرعات.

٣ ـ لاجدال أيضا في أن كثيرا من هذه المعتقدات الشعبية، ومايرتبط بها من ممارسات تعبدية وطقوس احتفالية، كانت تتنافى وروح الإسلام التي تقوم على التوحيد وتنزيه الحق سبحانه تعالى. وهي ـ أي هذه المعتقدات ـ في أحسن الأحوال معارف وأساطير ومرويات وإسرائيليات وأقاصيص دينية وحكايات شعبية متوارثة، مجال دراستها المناسب هو علم الفولكلور، أو الميثولوجيا أو الأنثروبولوجيا.

٤ ـ وطبيعي أن ترتبط هذه المعتقدات الشعبية ـ على مر العصور المتطاولة ـ بمأثورات شعبية أخرى ذات صلة بما يأتي:

أ ـ المهرجانات الدينية والمواسم والاحتفالات الشعبية التي يحتفل بها سكان المدينة من مسلمين ومسيحيين ويهود: احتفال ستنا مريم، مهرجانات عيد الفصح في أسبوع الآلام، وأحد الشعانين واحتفالات (النبي) موسى بمواكبها الشعبية المعروفة، وخميس غسل السيد المسيح أرجل تلاميذه، وهو من أروع الاحتفالات الشعبية الفلسطينية، وهناك الجمعة العظيمة، وسبت النور، وأحد الفصح المجيد أو جلوة البطرق، ومهرجان استقبال الراهب، وخميس الصعود، وعيد الصليب، ومار الياس، وعيد الغطاس، وعيدالميلاد المجيد، ومن الاحتفالات الإسلامية الشعبية إحتفالات النبي روبين والنبي صالح، وليالي رمضان.. الخ ومعظم هذه المهرجانات والاحتفالات هي كرنفالات شعبية بكل معنى الكلمة، يتفنن فيها المجتمع الشعبي في إبراز فنونه التقليدية، مثل ركوب الخيل والعاب الفروسية ومبارزة السيف والترس، والأزياء والأقنعة الشعبية، والموسيقى والصناعات والحرف الشعبية، والأطعمة والألعاب والفنون الشعبية التمثيلية مثل خيال الظل أو القراقوز، والأغاني والرقصات الشعبية الدينية والوطنية والترفيهية والشوبشات المعروفة في القدس وفلسطين.

ب ـ زيارة الأماكن المقدسة في المدينة، ومنها ـ عدا ماذكرناه من قبل ـ قبر النبي صالح، ومقام النبي روبين، ومقام النبي موسى. وغيرهم، وما يستحب أداؤه من طقوس وشعائر دينية وأدعية شعبية في هذه «البقاع المقدسة».

جـ ـ الآداب الشعبية المحلية لمدينة القدس وخاصة في مجال القصص الشعبي الديني والأغاني الدينية الشعبية، والأساطير التعليلية أو الحكايات الشعبية الشارحة لكل بقعة مقدسة في المدينة وعددها ١٢٩ مكانا مقدسا.

د ـ الثقافة المادية بجميع أنماطها وفروعها المتنوعة. وخاصة الأبنية والعمارة الشعبية، أدواتها وأشكالها وطرزها المعمارية والفنية، وما يرتبط بها من حرف وفنون شعبية كثيرة أخرى.

وسأكتفي هنا بذكر مثالين فقط، أحدهما يتعلق بوصف كرسي العرش الخاص بالملك سليمان

ـ كما تصورته المخيلة الشعبية ـ كما ورد في الأسطورة العربية للنبي سليمان، التي رواها ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تاريخ الرسل والملوك: «. . . وقد صنعت الجن لسليمان كرسيا من أنياب الفيلة، مزينا باليواقيت واللؤلؤ والزبرجد، محفوفا بأربع نخلات من ذهب، شماريخها (أي حملها من الثمر) الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر، يعلو اثنتين منها طاووسان من ذهب، والاثنتان الأخريان يعلوهما نسران ذهبيان، كما جعلوا في جنبي الكرسي، من أسفل، أسدين من ذهب يجلل رأسيهما عمودان من الزبرجد الأخضر، وفوق النخلات دوالي من الذهب الأحمر، حتى إذا أراد سليمان أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما له، وضربا الأرض بذنبيهما، فإن وضع رجله على الدرجة السفلى استدار الكرسي جميعه دوران الرحى، ونشر النسران والطاووسان أجنحتها، وإذا استوى على الكرسي يضع النسران تاجه على رأسه، ومايقعد حتى يظلاه بأجنحتهما. فيستدير الكرسي والنسران والأسدان، وينضح الطاووس على رأس سليمان المسك والعنبر، ويبدأ سليمان القضاء، فيأخذ حمامة من الذهب، قد وضع في جوفها التوراة، ويقرأ على الناس، ويقضي فيهم بما في كتاب الله. [٣٧] وبصرف النظر عما توحي به رموز الطير والحيوان هنا من قوة ومنعة وعزة، فإن مثل هذا الوصف، كان يفعل فعله ولا شك في نفوس العوام والعقلية الشعبية الساذجة في تلك العصور.

أما المثال الآخر، فهو يهم المعنيين بدراسة الفنون التشكيلية، عامة، والمهتمين خاصة بصناعة السجاد الإسلامي، ورسومه الفنية ونقشاته وموتيفاته الجمالية، وهذا المثال يتعلق بطائر الرخ الأسطوري حيث ذكر القاضي مجير الدين (ت ٩٠٠هـ) في كتابه الأنس الجليل أن هذا الطائر الأسطوري قد خلق في واد من أودية القدس حتى سلط الله عليه طيورا جارحة كثيرة فأبادته، هو ونسله. . وهذا الطائر الأسطوري هو الذي وصفه المسعودي، تحت اسم «العنقاء» نقالا عن بعض المحدثين الذين ينتهي سندهم إلى ابن عباس نفسه، الذي قال: قال رسول الله (ص) «إن الله خلق طائرا في الزمان الأول من أحسن الطير، وجعل فيه من كل حَسَن قسطا، وخلق وجهه على مثال وجوه الناس، وكان في أجنحته كل لون حسن من الريش، وخلق له أربعة أجنحة من كل جانب منه، وخلق له يدين فيهما مخالب، وله منقار على صفة منقار العقاب غليظ الأصل، وجعل له أنثى على مثاله، وسماها بالعنقاء، وأوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران، أني خلقت طائرا عجيبا، خلقته ذكرا وأنثى، وجعلت رزقه في وحش **بيت المقدس**، وآنستك بهما، ليكونا مما فضلت به بني إسرائيل، فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما في القدس، وأدخل الله موسى وبني إسرائيل في التيه، فمكثوا فيه أربعين عاما حتى مات موسى وهارون في التيه، وجميع من كان مع موسى من بني إسرائيل، وكانوا ستمائة ألف. وخلفهم نسلهم في التيه، ثم أخرجهم الله تعالى من التيه مع يوشع بن نون تلميذ موسى ووصيه، فانتقل ذلك الطائر، فوقع بنجد والحجاز في بلاد قيس عيلان، ولم يزل هنالك يأكل من الوحوش ويأكل الصبيان وغير ذلك من البهائم إلى أن ظهر نبي من بني عبس بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، يقال له خالد بن سنان فشكا إليه الناس ماكانت العنقاء تفعل بالصبيان، فدعا الله عليها أن يقطع نسلها، فبقيت صورتها تحكى ـ تقلد ـ في البسط وغير ذلك[٣٨] وهذا هو الشاهد الفني هنا.

ولعل من الاستطراد المحبب هنا أن نضيف: أن هذا الطائر الأسطوري الذي ربطت الأساطير بينه وبين القدس، ثم نجد والحجاز في مرحلة متأخرة، لم يكن إلا معبودا فينيقيا قديما، فهو نفسه الطائر المعروف في الأساطير الفينيقية بطائر الفينيق، أبو الفينيقيين الذي كان يعبد تحديدا في مدينة بعلبك، ورمزه أو شعاره المقدس هو النخلة (شجرة الحياة عند الساميين ولذلك فهي شجرة مقدسة في الأساطير والمعتقدات الشعبية العربية) كذلك تشير بعض الأساطير السامية إلى أن

هذا الطائر هو بعينه الطائر المصري الخرافي «بينو» الذي كان يعبده المصريون ـ في هليوبوليس ـ باعتباره روحا لأوزوريس، وحّده الفينيقيون بطائرهم فينيق أو فينيقس الذي وصفه هيرودوت بأنه كان يشبه العنقاء[٣٩]. والذي يعنينا هنا ـ وخشية أن يجرنا الاستطراد إلى مزيد من التفاصيل ليس هنا مجالها ـ أن الفنان الشعبي في القدس وفلسطين قد استخدم أشكالا وموتيفات فنية تعود إلى جذور ميثولوجية دون أن ندري نحن شيئا عن أصولها الأسطورية ووظائفها.

٢ ـ بيت المقدس في الأدب الشعبي

في ضوء المهاد التاريخي والأسطوري والفولكلوري الذي ألمحنا إليه منذ قليل تتبدّى لنا القدس ـ عروس المدائن ـ أرضا مقدسة لا تقل عن مكة والمدينة مكانة في نفوس المسلمين خاصة، وهذا يعني أن سقوطها في براثن عدو غاصب هو اغتصاب لكبرياء الأمة وانحراج لمشاعرها الوطنية واعتداء على وجدانها الديني والقومي وسقوط لكل ما تمثله هذه المدينة المقدسة من رموز دينية وقومية ما بعده سقوط!! ومن هنا أصاب المسلمين عامة وأهل القدس والشام خاصة فزع ما بعده فزع إثر احتلال الفرنج للقدس.. وما كادت الأمة تستعيد وعيها ـ بعد هول الهزيمة ـ حتى هبت تنادي بتطهير القدس من رجس الفرنجة وتستصرخ خلفاء الدولة وسلاطينها للقيام بدورهم في الجهاد، وهب رجال الفكر وعلماء الدين يستنصرون الهمم، وكان طبيعيا أن يلعب الأدب دوره التحريضي إبان فترة التحرير فضلا عن دوره التعويضي إبان الفترات الأخرى، يستوى في ذلك الأدب الرسمي أو أدب الصفوة مع الأدب الشعبي، أو أدب العوام.. وسنخصص كلامنا هنا ـ بالطبع ـ للحديث عن الأدب عامة وأدب المقاومة خاصة.

كثيرة هي الدراسات التي تحدثت عن أدب المقاومة، أو أدب الجهاد في الشعر الرسمي[٤٠] ومن ثم سأكتفي هنا ببعض الإشارات السريعة، من قبيل المثال فقط.. منها ظهور لون من شعر الجدل الديني في الشعر الرسمي، قام فيه الشعراء بالدفاع عن ملّة الإسلام أمام أعدائها من الفرنج واليهود، وهذا اللون أو التيار مزيج من الشعر الصوفي وشعر النبويات، وقد بلغ ذروته على يد البوصيري في قصيدته الموسومة «**المخرج والمردود على النصارى واليهود**» وعدد أبياتها وصل ٢٨٤ بيتا، ونظرا لطبيعتها الجدلية واللاهوتية، فقد قام البوصيري بشرحها بنفسه[٤١].

وأما المثال فهو أبيات من نص شعري للشاعر حسن الجويني يعكس لنا عبقرية النصر التاريخي الذي حققه صلاح الدين الأيوبي، كما تعكس لنا أيضا إلى أي مدى كان ذهول العرب والمسلمين أنفسهم بهذا النصر بقدر ما كان كذلك ذهولهم عندما سقطت في أيدي الفرنج، يقول هذا الشاعر المغمور نسبيا:

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذي الفتوح، فتوحٌ الأنبياء، وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصِّيد في يده ... صَيْداً، وماضعفوا يوما، وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا، وهمُ ... خوف الفرنجة ولدان ونسوان

تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ اسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذي الفتوح، وما سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد تَنَزَّلتَ فيه آياتٌ وقرآن

وكان مافعله صلاح الدين استجابة وامتدادا لجهود نور الدين الذي عقد المسلمون عليه آمالا كبارا في استرداد القدس:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى، فالقدس مرتقب

ويرقى الشعر الرسمي بالبطل المخلص صلاح الدين إلى درجة القديسين:

ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا فلا عدمت أخلاقك الطهر والقُدْسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت ملائكة الرحمن أجنادُك الخُمْسا

ويؤكد الشاعر الرسمي أن نصر صلاح الدين نصر للإسلام ولسائر الأرض الإسلامية المقدسة، فهو الذي:

أحيا الهدى وأمات الشركَ صارمُه لقد تجلّى الهدى والشرك منجاب
بفتحة القدس للإسلام قد فتحت في قمع طاغية الإشراك أبواب
نفى من القدس صلبانا كما نفيت من بيت مكة أزلام وأنصاب

وعلى الرغم من الكثرة الهائلة للشعر الرسمي، في أدب المقاومة، ودون ماخوض في التفاصيل، ودون ماغضب، فان هذا الكم الشعري ـ من وجهة نظر فنية بحته لا يرقى إلى التعبير عن أدب النكبة، وعن أدب المقاومة، وعن أدب الجهاد. . فقد ظل شعرا غنائيا ذاتيا، يجتر ذاته، فكريا وموضوعيا وفنيا، حتى وُصِم ـ في رأى البعض ولست منهم ـ أدب العصرين الأيوبي والمماليكي بأنه أدب انحطاط، وعلى الرغم من قسوة هذا الحكم، وعدم صحته تماما من الناحيتين التاريخية والفنية، فان دلالته تبقى ماثلة في الأذهان، علامة على التدهور والاضمحلال سياسيا وعسكريا وأدبيا، وينبغي ألا يغيب عن عقولنا، أن محرري القدس، قديما، لم يكونوا عربا أصائل ولكنهم كانوا مسلمين (أجانب) في المقام الأول. . ومعظم الشعراء لم يكونوا إلا موظفين رسميين في بلاط السلاطين، ومن ثم عجزوا عن أن يطلعوا بمسئولياتهم الأدبية والتاريخية في مثل هذه الظروف العسكرية والسياسية العصيبة والفاصلة في تاريخ الشعوب.

وكان غريبا حقا أن معارك كبرى في تاريخ العرب والإسلام مثل حطين، وأخرى فاصلة في تاريخ العرب والبشرية جمعاء، مثل معركة عين جالوت، فيها رفع الإسلام لواء النصر فيها خفاقا عاليا. . ومع ذلك، فقد ظل خافتا صوت الأدب الرسمي، وشعر الصفوة. فجاءا شعرا تقريريا،

أشبه ما يكون بالشعر المدرسي أو شعر الفقهاء، على حد تعبير القدماء. . وعجز عن أن يطور نفسه أو أدواته إلى ملحمي، على نحو ما فعل الأدب الشعبي العربي ذاته الذي أفرز ـ خلال عصور الحروب الصليبية والمملوكية ـ أعظم نصوصه الملحمية، حتى عرفت هذه الفترة بين الباحثين بأنها فترة تكامل السير والملاحم الشعبية العربية تاريخيا وفنيا، وقد جاءت تجسيدا وتخليدا لأعظم الأنتصارات العربية والإسلامية العسكرية والقومية والدينية، على الصليبيات القادمة من الغرب المسيحي، والمغوليات القادمة من الشرق التتري. . وهو ما حدث أيضا على الجانب الآخر، إذا كانت الحروب البيزنطية العربية قد أفرزت ملحمتها البيزنطية الشهيرة «ديجينيس أكريتس» كما أفرز خلاص أو تحرير أسبانيا من الحكم العربي «ملحمة السيد» الذائعة، كما أفرزت الحرب الصليبية المقدسة ملحمتها المعروفة «تحرير أو رشليم» أو القدس المحررة للشاعر تاسو، وصّور فيها وقائع «جيوفري» في نهاية الحرب الصليبية الأولى وهذه الملاحم الثلاث كلها نتاج مراحل تاريخية متزامنة من الصراع العسكري والديني بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي أو بالأحرى التي استترت مطامعه وراء الدين، في العصور الوسطى.

إن فعل المقاومة ـ في تاريخ الشعوب ـ ضد الغزاة والمحتلين، هو بطبيعته فعل شعبي جماعي، تلعب فيه الكلمة دورها التحريضي في قيادة الوجدان الجمعي، وتوجيه الجماهير الشعبية ضد أعداء الأمة، في الداخل والخارج، دفاعا عن الذات العامة التي لم تتهدد في عصر من عصورها القديمة قدر ما تهددتها الأخطار الداخلية والخارجية إبان الحروب الصليبية والمغولية. . ولا جدال في أن الكلمة ـ ممثلة في نتاجها الأدبي الشعبي ـ قد لعبت دورها كسلاح فعال من أسلحة المقاومة، حفظ على الذات العربية وحدتها وتماسكها في أحلك العصور، وفي دراسة سابقة لنا تبين أن أدب المقاومة الشعبي العربي نوعان **أحدهما** يمكن تسميته «**أدب المقاومة السلبية**» الذي تطغى عليه النزعة التعويضية أو الهروبية، وقوامه:

١ ـ تيار الشعر الصوفي
٢ ـ تيار الشعر النبوي
٣ ـ تيار شعر الفخر والتحامق
٤ ـ تيار شعر الخلاعة و المجون[٤٢]

وقد ارتبطت هذه التيارات بأبناء الطبقات الوسطى من المثقفين والمتعلمين والفقهاء والعلماء وكبار المتصوفة وصغار التجار، فضلا عن أرباب الطوائف والأصناف والحرف.

أما **النوع الآخر** من الأدب الشعبي المقاوِم (بكسر الواو) فهو ما يمكن تسميته «**أدب المقاومة الإيجابية**» الذي تطغي عليه النزعة التحريضية لا التعويضية وقد تجلى ذلك، في أشكال التعبير الشعبي المختلفة مثل:

١ ـ الحكايات الشعبية
٢ ـ المسرح الشعبي
٣ ـ الملاحم والسير الشعبية
٤ ـ الحكايات المرحة والنوادر السياسية
٥ ـ حكايات الشطار والعيارين

٦ ـ الأغاني الشعبية
٧ ـ الشعر الشعبي

وسنكتفي ـ لضيق المقام ـ بالحديث عن بعض هذه الأشكال الأدبية من منظور موضوعي، محوره أدب المقاومة الفلسطينية:

(١) الحكايات الشعبية

ولا سيما حكايات الليالي العربية (ألف ليلة وليلة) على نحو ما نجد في حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية، وحكاية على نور الدين ومريم الزنارية، وحكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان (تشكل هذه القصص الثلاث وحدها خمس الليالي، أي حوالي مائتي ليلة) وقد ركزت هذه الحكايات على الوجه الاجتماعي للمقاومة، في مواجهة الحضارة الغازية المنتصرة آنذاك، وعلى كشف أو فضح العلاقات الاجتماعية والسياسية التي أفرزتها فترات الحرب والهدنة بين الطرفين، وكان طبيعيا أن تنتصر هذه الحكايات، دراميا وفنيا وموضوعيا، للقيم العربية الإسلامية التي تمثلها، وتدافع عنها.

ويعنينا هنا أن نشير إلى أن القدس، ومقدساتها الإسلامية والمسيحية كانت مسرحا طبيعيا ـ جغرافيا وتاريخيا وروحيا وحضاريا ـ للأحداث والوقائع التي تحفل بها حكايات الليالي العربية.

وهو ما يمكن أن نجده، بوضوح أكثر، في أول مجموعة من الحكايات أو الخرافيف الشعبية الفلسطينية التي جمعت، في القدس، سنة ١٨٩٩ أي منذ مائة عام تقريبا بواسطة المستشرق المعروف انو ليتمان، ونشرها في هولاندا سنة ١٩٠٥، بلهجة أهل القدس العامية، وفيها احتلت القدس بؤرة التفكير الشعبي المحلي، أي الفلسطيني فقط، ضد الحاكم غير الوطني (عربيا أم تركيا) وضد المستعمر الإنجليزي، واليهودي جميعا، وقد تآمروا جميعا على امتصاص دمه، وسرقة وطنه، ونهب ثرواته، وفي هذه المجموعة، كان الوعي الشعبي مدركا لأبعاد المأساة القادمة (الاحتلال الصهيوني) ومحذرا منها، وسابقا على الوعي الرسمي الذي كان مشلول الإرادة أمام الاحتلال الإنجليزي للبلاد وفيها أيضا، كان القاص الشعبي ـ ذلك العبقري المجهول ـ مدركا بحدسه الفطري، أن اليهود يتربصون شرا بوطنه وقومه وعقيدته، وأنهم ينوون اغتصاب بلاده (من الأهمية بمكان أن نتذكر أن فلسطين قد شهدت أول وأكبر موجة من الهجرات اليهودية بين عامي ١٨٨٢، ١٩٠٣، قد تأكد خلالها أن لليهود مطامع قومية في فلسطين، وأن نتذكر كذلك هذه المجموعة القصصية جمعت بين عامين فقط من عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧م والذي أعلن فيه لأول مرة عن ضرورة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بمساعدة الدول الكبرى، وخاصة بريطانيا).

وكم كنت أتمنى أن يتسع المقام لسرد واحدة من حكايات هذه المجموعة القصصية المبكرة، لنقف على رموزها السياسية الصريحة التي كشفنا عنها اللثام لأول مرة في دراسة لنا بعنوان «حكايات شعبية من فلسطين، نصوص ودراسة» المنشورة في مجلة التراث الشعبي العراقية[٤٣]، ولقد لخصت لنا هذه الحكايات الشعبية الفلسطينية ـ في حدس صادق أقرب إلى النبؤة آنذاك ـ مأساة فلسطين

قبل حدوثها بخمسين عاما (١٩٤٨) ووضعت يدها ـ في حس شعبي صادق وأصيل ـ على جراحنا السياسية والقومية التي يمر بها الواقع العربي في نهاية القرن الماضي، دون تفلسف سياسي أو جدليات بيزنطية، فإذا هي ـ الجراح ـ كامنة في أمرين خطيرين، أحدهما يتمثل في تمزيق الصف العربي (ليس عبثا أن تكون كل مدينة فلسطينية في هذه الحكايات لها ملك قائم بذاته، وهم في علاقتهم أشبه بملوك الطوائف، في تخاذلهم وأحقادهم، في دسائسهم ومؤامراتهم) والأمر الآخر في مساندة القوى الإمبريالية الكبرى لليهود، ومن ثم فقد مضت هذه الحكايات الشعبية، شأنها شأن التراث الشعبي البطولي تتجاوز أسباب الهزيمة ـ بعد أن حددتها ـ وترسم لنا طريق النصر وأسبابه، من خلال توحيد الصف العربي ـ داخل فلسطين أولا ـ وضرورة مجابهة الخصم الحقيقي في هذا الصراع المصيري بين العرب واليهود ثانيا. ولا بأس من الاستطراد هنا لحظة، نشير فيها إلى أن اليهود دائما في هذه الحكايات مغتصب لعروس (هي بالطبع فلسطين) وأنه شخص لا يقهر، لسبب بسيط، أنه يحفظ روحه في صندوق، يحتفظ به في قلب أسد كاسر لا يجرؤ أحد ـ في البر والبحر ـ على مواجهته (لم يكن هذا الأسد الكاسر، في حقيقة الأمر، إلا الحماية البريطانية آنذاك على فلسطين التي تمد اليهود بأسباب القوة والحماية والحياة.. والطريف أن شعار الأمبراطورية البريطانية هو الأسد فعلا)[٤٤].

(٢) المسرح الشعبي أو «الخيال»

ونقصد به المسرح الظلّي المعروف بخيال الظل أو ظل الخيال ـ إذا شئنا التسمية العلمية الدقيقة ـ ومن الثابت تاريخيا أن صلاح الدين الأيوبي، عندما دخل مصر، شاهد، أول ماشاهد، هذا الضرب من المسرح الشعبي، وعلى الرغم من ضياع نصوص هذا المسرح الشعبي، وهذا طبيعي لأنه أدب شفاهي، فقد وصلتنا بعض النصوص المدونة، منها «بابات ابن دانيال» وهي نصوص مسرحية ذات طبيعة انتقادية حادة (نقد سياسي، نقد اجتماعي) تشي بوظيفة هذا المسرح التحريضية ودوره في المقاومة إبان العصرين الأيوبي والمملوكي، وكان هذا المسرح الظلي ذائعا في المدن العربية ـ بما في ذلك القدس ـ حتى وقت قريب، وقد وصف لنا أحد الباحثين الفلسطينيين صورة حية لمسرح خيال الظل في مقاهي القدس، حيث كان من عادة أهل القدس في ليالي رمضان مشاهدة فصول كراكوز التي يصفها بأن كانت سلوى بريئة وترفيه لايخلو من إفادة لأهل القدس، إذ أنها تهدف من خلال سردها حكايات فكاهية إلى نقد لاذع للمجتمع حينذاك، وتتعرض ـ كما يقول الباحث ـ إلى سلوك الحكام وتأثيره على الرعية، كما تتطرق إلى تاريخ العرب البطولي وقصص أبطاله.. فالمسرح الظلي في القدس إذن كان استمرارا في الهدف والوظيفة، وامتداد للمسرح الظلي العربي بوجه عام. ويلفت نظرنا الباحث إلى طبيعة جمهور هذا المسرح، فيقول: «ومما لفت نظري في أثناء جمعي هذه المعلومات.. اهتمام الكاراكوز بالاطفال وأدب الأطفال... فتراه يخصص لهم حفلات يستغرق أداء كل منها ساعة من الزمن تكون عادة بعد الإفطار في مقهى معين. ويلحقها بحفلة ثانية بعد ساعة من الزمن وفي مقهى آخر. والجدير بالذكر أن مقدم الكاراكوز يراعي في عرضه للأطفال مواضيع تمثيلياته وينتقي ما يجد صدى جميلا عند الاطفال كما ينتبه إلى الألفاظ وإلى سهولة التعبير.

وهناك أدوار حماسية تاريخية كان الأولاد ينقسمون عند حضورها إلى قسمين، ففي رواية عنتر

بن شداد وأبو زيد الهلالي، كان قسم يتحيز إلى عنتر والثاني إلى (أبو زيد).

وكان مجموع ما يقدمه الكاراكوزاتي في الليلة الواحدة خمس حفلات في اماكن مختلفة، ويركز اهتمامه الأكبر على الحفلة الأخيرة منها. . . ويخصصها للمثقفين والأدباء، لذلك كان يتخللها الأدباء والشعراء، وتتناول مواضيع فيها نقد لاذع بناء وحكم وأمثال بليغة.

وكان الجمهور يتجاوب تجاوبا عظيما مع تلك الحفلات. . . فيفرح عند انتصار عنتر، وتنقبض أساريره عندما يسجن أبو زيد. . . وقد أخبرني أحد المسنين أن الكاراكوزاتي المشهور الحاج محمد الطرابلسي كان يعلن عند انتهائه من تقديم فصله عن عنوان الحلقة القادمة، فكان أن اعلن مرة عن حلقته القادمة وكانت بعنوان «عرس عنتر». وفي ميعاد تلك الحلقة جاء المتفرجون وكلهم مرتدون أحسن ما عندهم من ثياب وحلى وعند انتهاء الوصلة فرقوا على بعضهم الملبس والحلوى وانطلقوا بالشوبشات وهنأوا أنفسهم وكأنه عرس حقيقي.

ويسوق لنا المؤلف فصلا من تمثيليات كراكوز مأخوذا من «كلب بلدي ولا فرنجي» وهي تمثيلية ساخرة تحمل بين طياتها نقدا لاذعا للسيدات الأجنبيات أو المتفرجات اللواتي كن يفرطن في تدليل كلابهن ويسرفن في إطعامهم ما لذ وطاب على مرأى من أبناء البلاد الذين كانوا يتضورون جوعا خلال الحرب العالمية الأولى، وقد كانت التمثيلية في الوقت نفسه مقلبا طريفا من عواظ، وفخا محكما أوقع كراكوز فيه» (٤٥) وهناك مسرحية فكاهية أخرى بعنوان «لعبة القاضي» أشار اليها باحث فولكلوري آخر مؤكدا أنها ذات وظيفة نقدية وتربوية في آن واحد (٤٦).

(٣) الملاحم والسير الشعبية : أو الأدب البطولي

وهو ضرب من الأدب القصصي البالغ الطول والذي يتمحور حول البطولة الجماعية للشعوب، فهي ـ أي السير والملاحم الشعبية ـ من هذه الناحية تجسيد للجانب التحريضي في المقاومة ضد العدو الداخلي (الفتنة ـ التمزق ـ الاستبداد ـ القهر ـ العبودية. . . الخ) وضد العدو الخارجي (الفرس، الروم، الفرنجة، المغول، اليهود) فما من بطل ملحمي من أبطال السير الشعبية (عنترة، حمزة العرب، سيف بن ذي يزن، الأميرة ذات الهمة، أبو زيد الهلالي، الظاهر بيبرس) إلا وخاض حروبا ضارية ضد هؤلاء الأعداء، سواء أجاءوا من الشرق المغولي المجوسي أم من الغرب الصليبي، ولما كان اليهود أعجز من أن يواجهوا البطل الملحمي ـ في كل سيرة ـ فكانوا دائما ـ بما عرفوا به من غدر وخيانة وتآمر ـ ينجحون في تأليب قوى الشر ضد العرب، ولاسيما المغول وأصحاب الملّة النصرانية من الفرنجة. ولقد صورتهم السير الشعبية جميعها في صورة تجمع بين الجشع والبخل والحقد والاحتلال والمكر والدسيسة، ومنهم من يستغل ابنته في الوصول إلى غاية أو تحقيق مأرب، وجعلتهم السيرة أيضا من السحرة الذين يتوسلون بذلك العلم الأسود للتخلص من أعدائهم وإيقاع الأذى والضرر بهم وبذويهم. وكان لابد أن يوجد في معسكر المسلمين من يفسد هذا السحر ومن يدرك بالفراسة مكنونات العقلية اليهودية لكي يعمل الأبطال على الوقاية منها أو الاستعداد لها (٤٧) وبالرغم من التباين التاريخي بين الأبطال (من العصر الجاهلي حتى المملوكي)، فان القاص ـ لايهمه هنا الصدق التاريخي، بقدر ما يهمه الصدق الفني الذي يبيح له أن يجمع بين المتناقضات والمتشابهات التاريخية التي تخدم هدفه وتبلور قضيته، ولهذا لاغرو أن يحارب عنترة اليهود

والمغول والفرنجة جميعا [٤٨]. . وهو ابن العصر الجاهلي. . تماما مثلما كان يحاربهم الزير سالم في قصته المعروفة وهو جاهلي أيضا [٤٩] وكذلك سيرة بني هلال، كما في قصة جوهرة العقول [٥٠] وقصة النجم الوضاح [٥١] وكما في تعزيبة بني هلال، قصة أبي بشارة العطار حاكم بلاد صهيون (أو قلعة صهيون) [٥٢] ويطول بنا الوقت والمقام لو واصلنا الاستشهاد والتمثيل من سائر السير الشعبية ولاسيما سيرة الظاهر بيبرس التي تتمحور من بدايتها لنهايتها حول تطهير ديار الإسلام من الصليبيات والمغوليات، كما سنرى وشيكا.

ومن الجدير بالذكر أن البطل الملحمي العربي كان لا يتسنم ذروة البطولة الملحمية في السيرة المعروفة باسمه إلا إذا رفع سيفه دفاعا عن الإسلام وتحرير أرضه ـ وعلى رأسها تحرير القدس ـ من دنس الغاصبين، كما بات الانتصار الحاسم على اليهود (في كل سيرة) إيذانا بتحقيق النصر النهائي للبطل الملحمي، وإيذانا بإنتهاء دوره العسكري في السيرة.

ومن الجدير بالذكر أيضا أن المقاومة في الأدب الملحمي العربي كانت تتحقق على مستويين متتابعين، أولهما مستوى التحرير الاجتماعي، والآخر التحرير السياسي، وكان طبيعيا أن يأتي أبطال هذه الملاحم والسير رموزا دالة على قضايا التحرير الاجتماعي، تماما مثلما هم رموز دالة على قضايا التحرير السياسي أو القومي. . . فجاء عنترة رمزا لتحرير الإنسان العربي من أغلال العبودية وربقة التمييز العنصري، اللوني والطبقي معا. وجاء حمزة العرب رمزا لتحرير الجماعة العربية من أغلال التخلف الحضاري، وجاء سيف بن ذي يزن رمزا لتحرير العقل العربي من أغلال الخرافة وأوهام السحر وبقايا الموروث الأسطوري المسيطر على الذات العربية، وجاء أبوزيد الهلالي رمزا لتحرير الذات العامة من أغلال الروح القبلية السائدة التي تعوق الذات العامة، وتمنع توحدها في أمة واحدة كما أمر الإسلام، وجاءت الأميرة ذات الهمة رمزا لتحرير المرأة من أغلال التخلّف، تأكيدا لحقها في الوجود الحر الكريم وتحقيقا لدورها في صنع الحياة العربية على أساس من المساواة في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة ولهذا لاغرو أن يكون لقبها في السيرة «نصف الإسلام» وجاء الظاهر بيبرس رمزا لتحرير المجتمع العربي من ربقة الفساد تمهيدا لتحقيق مجتمع العدل الاجتماعي والأمن القومي. . فإذا ما انتهى البطل من تحقيق التحرير الاجتماعي له ولأمته شرع يقودها إلى تحقيق النصر الخارجي، أعني التحرير القومي بشقيه: النضال القومي والجهاد الديني، وهما وجهان لعملة واحدة اتسمت بها حروب تلك الفترة، وهي حروب، كما نعرف، قوامها الدفاع عن الإسلام ودار الإسلام، فما من ملحمة من هذه الملاحم أو السير إلا وتحكي صراع الذات القومية مع أعدائها الذين جاءوا من الشرق المجوسي والتتري الملحد أو هؤلاء الذين جاءوا من الغرب البيزنطي والصليبي (المسيحي). . بمعاونة الطابور الخامس الذي كان متغلغلا ـ بالغدر والخيانة ـ في شرايين الأمة العربية والإسلامية آنذاك، أعني اليهود.

بهذه المحاور القومية والاجتماعية تكون سيرنا الشعبية قد عكست لنا التصور الشعبي الجمعي لقضايا التحرير القومي والاجتماعي التي شغلت بال الإنسان العربي وتطرح في الوقت نفسه الحلول الجمعية لها، ولابد أن ننوه هنا بأن قضايا التحرير الاجتماعي للبطل ـ ممثل الجماعة ـ قضايا سابقة في الترتيب لقضايا التحرير القومي، وهذا يعني في بساطة ووضوح أن التحرير الاجتماعي الذي يقوم أساسا على تحرير الفرد داخليا، هو المقدمة المنطقية والحتمية لتحريره خارجيا وقوميا وسياسيا. ومن

اللافت للنظر كذلك، أن تحرير القدس كان قاسما مشتركا أعظم في جميع الملاحم والسير الشعبية العربية، لا تتحقق البطولة الملحمية إلا به، مهما كان عصر البطل، وتاريخه وزمانه، وهذا يعني في بساطة ووضوح أيضا أن تحرير القدس مسئولية كل الأبطال في كل العصور، لا مسئولية بطل بعينه أو شعب بعينه أو عصر بعينه.. إنها مسئولية العرب والمسلمين جميعا... وهذا هو درس الدروس الذي نخرج به من السير الشعبية جميعا التي لم يكن محض مصادفة أن تتكامل إبان الحروب الصليبية. ولهذا ليس محض مصادفة أيضا أن ينتخب الوجدان الشعبي بطلا ملحميا غير عربي، يعهد إليه ببطولة أهم ملاحم التحرير العسكري والسياسي والقومي من براثن الغزو الصليبي الاستيطاني، والطوفان المغولي المدّمر، وقد ارتكز الضمير الشعبي في اختياره لبيبرس، على الدين لا الجنس، على الاسلام لا العرق، مؤكدا بذلك أن تحرير المقدسات العربية مسئولية إسلامية، قبل أن تكون مسئولية عربية فقط. هذا هو درس التحرير الذي نتعلمه من هذه السيرة، تاريخيا وفولكلوريا. ولم يكن من قبيل المصادفة أيضا أن تفيض هذه الملحمة في ذكر المناصب التي تولاها بيبرس ـ بطل السيرة ـ قبل أن يصبح سلطانا على المسلمين بعامة، وعلى الفدائيين، نعم الفدائيين، بخاصة. ومن أهم المناصب محافظة بيت المقدس، فقد عمل بيبرس محافظا لمدينة بين المقدس لكي يخلصها من المفسدين واللصوص والخونة والعملاء، وما أكثرهم.

ومن أهم أبطال هذه السيرة طبقة الفداوية أو الفدائيين المجاهدين لتحرير بيت المقدس، من أعدائه في الداخل والخارج، وكان يتزعمهم البطل المعروف «جمال الدين شيحة» الذي يضرب به المثل «ملاعيب شيحة» لأنه دوخ الفرنج واليهود معا بحيله الماكرة وغاراته الناجحة وهجماته الخاطفة.. ويقول أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس ـ رحمه الله ـ في وصف هؤلاء الفداوية أو الفدائيين أنهم كانوا يصدرون في أعمالهم وأقوالهم عن اعتقاد يجعل مواجهة العدو الغاية الأولى والمثل لكل واحد منهم. وثاني ما يلاحظ عليهم أنهم يجمعون بين شجاعة الفرسان ودهاء «العيارين». والملاحظة الثالثة أنهم لم يعرفوا العصبية القبلية وما إليها في اختيار «مقدميهم» وإنما كان الواقع هو الذي يحدد مراتبهم على أساس الاختيار العملي. ويستوعب الجانب الأكبر من وقائعهم تلك القدرات الخاصة التي لابد من وجودها في فرق الفدائيين اليوم.. كانوا يسيرون الأيام بلياليها دون توقف ويتسلقون الجبال على وعورتها ويعبرون النهر والبحر الملح ويجيدون اقتناص العدو والتسلل إلى مواقعه ومفاجأة سراياه وكتائبه والقضاء على ذخائره والقدرة الفائقة على أسر قادته.. وكانت القدس من مواطن هؤلاء الفدائيين كما كانت في الوقت نفسه موقعا هاما للتدبير والانقضاض.

ولعبت القدس بفضل وجود الأماكن المقدسة فيها وعلى رأسها المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة دوراً خاصاً في صياغة بعض أحداث الملحمة الشعبية واستغلت مراسيم الحج والزيارة استغلالا فنيا بلغ أوجه في تعرف أحد أبطال الفداوية وهو معروف بن حجر بفتاة نصرانية اتجهت إلى القدس للقيام بالحج وكانت إبنة ملك الروم الذي عرف في الملحمة باسم «الرين حنا». أما الفتاة فمن أشهر الشخصيات النسائية في الملاحم الشعبية.. أنها «مريم الزنارية» أو «ذات الزنار» ومعناه التي اتشحت بنطاق. وفتنها الفدائي العربي وشغفت به حبا دفعها إلى الإسلام وتزوجت منه، وأنجب منها بطلا آخر ساير إحدى العقد الرئيسية في حلقات الملحمة الشعبية، وهذا البطل هو «عرنوص» أي الطائر الذي يتغير لون ريشه بتغير المراحل. وربى الإبن في بيئة

الصليبيين عند جده، وكان لا بد أن تعيده هذه الملحمة البطولية في مشهد قتالي رائع يجسم عبقرية اللقاء بينه وبين أبيه الذي لا يعرفه، وهو اللقاء الذي انتهى باعتراف الأب بابنه. . وتفيض السيرة في أحداث هذه الحلقة وتصور استشهاد الأب في الدفاع عن معقله (القدس)، وتتخذ الألوان والظلال التي تلائم ذلك المشهد التراجيدي النبيل(٥٣).

(٤) الأغاني الشعبية

وإذا نحن تحولنا عن الملاحم والسير الشعبية والحكايات والخرافات الفلسطينية وغيرها من القصص الشعبي الروائي أو التمثيلي. إلى عالم الأغنية الشعبية الفلسطينية التي تتحدث عن القدس، فإننا نواجه عالما فولكلوريا خصبا، فرض نفسه على المعنيين بالفولكلور الفلسطيني عامة والأغنية الشعبية خاصة، فكثرت مؤلفاتهم وبحوثهم ـ جمعا وتصنيفا ودراسة ـ في هذا الحقل إلى الحد الذي يعفينا من التفصيل وتكفينا الإشارة هنا، مجرد الإشارة، إلى جهود هؤلاء الباحثين (فضلا عن بحوث أخرى ممتازة في طريقها إلى النشر، أشرف عليها كاتب هذه السطور) والإشادة بجهودهم. فقط يهمنا أن نسجل الملاحظات الآتية:

١ ـ أن نصيب القدس، في الأغنية الشعبية الفلسطينية، هو نصيب سائر المدن الفلسطينية دون تمييز، اللهم إلا الإشادة بمقدساتها، من قبيل استثارة الهمم من أجل إنقاذها، وتحريرها وتطهيرها من دنس الصهاينة (فهي أي المدينة تكمن أيضا وبشدة في اللاوعي الفلسطيني حتى لو لم يرد اسمها في الأغنية).

٢ ـ أن الوجه النضالي للثورة الفلسطينية، منذ بدايات النكبة ـ حتى عصر النكسة، قد فرض نفسه وبشدة أيضا على الأغنية الفلسطينية، بجميع أشكالها وأنواعها وفنونها، حتى لو كانت من أغاني المهد، أو الطفولة أو العرس الفلسطيني.

٣ ـ أن الأغنية الشعبية الفلسطينية ذات الوجه النضالي المقاوم قد فرضت نفسها وبشدة أيضا على الأحداث، فواكبتها، وعبرت عنها، وسجلتها مرحلة مرحلة، وأدت وظائفها التحريضية والثورية، كما لم يؤده فن شعبي آخر، فالأغنية الثورية بطبيعتها المباشرة، عبر العصور ـ أعظم نشيد حماسي يؤثر في وجدان الجماهير الشعبية ويحركها ويقودها إلى التضحية والاستشهاد من أجل النصر.

٤ ـ أن الأغنية الشعبية الفلسطينية في داخل الأراضي المحتلة أو في خارجها هي أكثر الفنون الشعبية الفلسطينية ـ ثورية وحماسا وتفاؤلا ربما بحكم وظيفتها التحريضية الأولى. وبحكم ظروفها الموضوعية والتاريخية والاجتماعية، تستوي في ذلك أغاني المجالس التقليدية والشروقيات والميجانا والعتابا والحداء وأغاني الدبكة والرقصات الشعبية والدّلعونا والجفرة وظريف الطول والمطلوع والزجل والمعنى والموشح، وأغاني الطفولة، وأغاني الخطوبة والزواج، والشوبشات وأغاني العمل. . جميعا.

٥ ـ أن الأغنية الشعبية الفلسطينية ـ في الأعوام القليلة الماضية ـ قد ازدادت حيوية وأملا فتجددت مضامينها الثورية بعد الانتفاضة الشعبية الفلسطينية، تعبيرا عن الرفض والاستسلام، وتجسيدا للتحدي الشعبي. . وإذا كانت الأغاني صوت الشعوب فما أعذب الآن صوت فلسطين كما يترنم به جيل الحجارة الآن، ومن ثم فلا غرو أن تختلف كثيرا عن الأغنية الشعبية في مرحلتها

الرومانسية المبكرة التي كانت تقوم ـ آنذاك، في بدايات النكبة ـ على البكائيات، وألم الحنين، وماتنطوي عليه من هم دفين وحزن عميق من جراء الاغتراب عن الوطن الأم.

٦ ـ أن الأغنية الشعبية الفلسطينية تعالت فوق كل صراع عنصري أو ديني، وفوق أية نعرات طائفية محتملة بل انطلقت بها حناجر الشعب الفلسطيني جميعه من مسلمين ومسيحيين على السواء، داخل الأرض المحتلة.. أو في أرض الشتات.. والمنفى والغربة دون تمييز. وليس أدلّ على ذلك كله من ذيوع ملايين الشرائط الكاسيت وأفلام الفيديو في كل مكان.

كلمة لابد منها

من المعروف أن مخطط العدو الصهيوني، الآني والمستقبلي، يقوم أساسا على تهويد الوطن المحتل، عقيدة وتراثا، ثقافة وتاريخا، متغلغلا ـ أول كل شيء ـ إلى أعماق التراث الشعبي الفلسطيني فيطمس مايمكن طمسه، ويشوه منه مايمكن أن يشوّه ويسطو ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلا ـ كل ما يمكن السطو عليه من الفولكلور الفلسطيني.

إن العدو الصهيوني في عدوانه على الإرث الفلسطيني، إنما يسير في خطين متوازيين، أحدهما خاص بالتراث اليهودي القديم والخط الثاني خاص بما يدعيه العدو تراثا صهيونيا حديثا يعكس حضارة كيانه المسمى إسرائيل. وإزاء ذلك كله فإنني أتفق مع كل دعوة تنادي بضرورة فضح المحاولات الصهونية إعلاميا في الداخل والخارج، ضمن خطة إعلام عربية وفلسطينية، وإشراك الدول الصديقة في عملية الكشف أولا عن الحقيقة، والضرب على يد العدو في كل محاولة سرقة، أو طمس أو تشويه للتراث العربي الفلسطيني، ومن ناحية أخرى لا بد من إجراء خطوات إيجابية فلسطينية وعربية لإحياء الفولكلور العربي الفلسطيني، إذا شئنا حقا الحفاظ على الشخصية القومية الفلسطينية. إن الأمر ليس ترفا علميا، ولكنه ضرورة وطنية وقومية، قبل كل شيء. إن الأمر جد خطير... أو «لات ساعة مندم» كما يحذرنا المثل الشعبي العربي القديم.

إن العودة إلى تراث الشعب، يعزز الارتباط العضوي بالأرض والوطن خاصة في النشء الذي لم يعش في فلسطين ولم يرها..

لقد كانت مشكلة اليهود دوما عبر التاريخ أنهم يمتلكون تاريخا ولا يمتلكون جغرافيا. أي يمتلكون تراثا ولا يمتلكون وطنا.. أو هكذا ظلوا يزعمون قبل احتلال فلسطين.... ولولا حرصهم، على التاريخ، عبر العصور والأجيال ماامتلكوا الجغرافيا اليوم باحتلال فلسطين، ولذلك فهم أكثر الشعوب وعيا بفولكلورهم.. ولأنهم كذلك، فهم يسعون اليوم إلى الاستيلاء على التراث الفلسطيني، كما استولوا على الأرض، يحدوهم في ذلك إيمانهم بأن الشعوب التي لا تاريخ لها ولا تراث هي شعوب بلا ذاكرة، وبلا ماض.. ومن لا ماضي له ولا تراث.. فلا حاضر له ولا مستقبل، ذلك أن التاريخ أولا هو الذي يصنع الجغرافيا. والتراث هو الذي يحفظ الإنسان، ويرعى الجذور، لهذا لا غرو أن يكون فولكلور الشعوب هوية وانتماءا...

الهوامش والمراجع

(١)أنظر مصطفى الجوزو: من **الأساطير العربية والخرافات**، بيروت: ١٩٧٧، ص ١٣٥ ـ ١٣٦، ومصادر النقل هناك.

(٢) هي ضرب من القصص والخرافات والأخبار التي أذاعها اليهود الذين دخلوا الاسلام، وامتلأت بها كتب التفسير الديني خاصة، وأجازها الفقهاء باعتبارها قصصا وعظية للترغيب والترهيب، ثم هي ـ كما يعرفونها ـ قصص وعقائد وأساطير دسها اليهود والنصارى في الدين الإسلامي منذ القرن الأول. (ومن هنا نقترح دراستها ضمن الفولكلور الديني كنصوص أدبية قصصية) عموما، حول الإسرائيليات، انظر: د. رمزي نعناعه: **الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير**، دمشق: ١٩٧٠، ص٧١ ـ ٧٥.

(٣) أحمد رمضان أحمد: «بيت المقدس والخليل»، تحرير قاسم عبده قاسم، ورأفت عبد الحميد، دراسة منشورة في كتاب **ندوة التاريخ الاسلامي الوسيط**، المجلد الأول، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، ص٤٧، ومصادر النقل هناك.

(٤) الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، جـ ٥، بيروت: ١٩٧٧، ص ١٦٩

(٥) معجم البلدان، جـ ٥، ص١٦٧، يضيف الحموي أيضا: وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتا وأحكمه وصقله، فإذا دخله الفاجر والورع، تبيّن الفاجر من الورع، لأن الورع كان يظهر خياله أسود، وكان أيضا مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده.

(٦) يستخدم مصطلح أسطورة في هذا البحث بالمعنى الوصفي الأنثروبولوجي الحديث لكلمة أسطورة، وتأسيسا على ذلك يجمل بالقارىء أن يفهم من استخدامنا المتكرر لكلمة أسطورة أو أسطوري اننا نستبعد المعنى اللغوي (الأكاذيب والأباطيل) ونقصد ـ تحديدا ـ التركيز على أهمية البعد النفسي الذي يميل إلى المبالغات والتضخيم في حياة الأفراد والمجتمعات الشعبية.

(٧) للوقوف على مزيد من الأساطير والمعتقدات، أنظر: مجير الدين العليمي، عبد الرحمن ابن محمد المقدسي الحنبلي: كتاب **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مواضع متفرقة كثيرة، عمان: ١٩٧٣.

(٨) معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٦٧.

(٩) ندوة التاريخ الإسلامي الوسيط، ص ٤٨.

(١٠) كثيرة جدا كتب الفضائل الخاصة بالقومية، المخطوطة أو المنشورة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ كتاب **الأنس الجليل** بتاريخ القدس والخليل تأليف عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين، المتوفي سنة ٩٢٨ هـ بالقدس، دار الكتاب طبع مرارا أولها في مصر سنة ١٨٦٦ وآخرها في عمان سنة ١٩٧٣.

٢ ـ باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس لبرهان الدين الفزاري الملقب بابن الفركاح (ت ٧٠٦ هـ) تحقيق المستشرق الأمريكي تشارلز ماثيوز، ١٩٣٤.

٣ ـ فضائل القدس لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق جبرائيل جبور سنة ١٩٧٩.

٤ ـ فضائل البيت المقدس للواسطى، تحقيق اسحق حسون، القدس: ١٩٧٩.

ـ مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، للمقدسي، شهاب الدين (ت ٧٦٥هـ) تحقيق: أحمد سامح الخالدي، يافا سنة ١٩٤٦. ومنها أيضا مجموعة الكتب التالية:

أ ـ فضائل بيت المقدس والخليل، للمقدسي، أبو المعالي (ق ٥هـ).

ب ـ مفتاح المقاصد ومصباح المراصد في زيارة بيت المقدس، للقرشي (ت ٦٢٥هـ).

جـ ـ فضائل بيت المقدس، وفضل الصلاة فيها، للكنجي المصري (ت ٦٨٢ هـ).

د ـ فضائل الشام وفضائل مدنها، مجهول المؤلف (ق ٧هـ).

هـ ـ كتاب فيه فضائل بيت المقدس، للمكناسي (ق ٧هـ).

و ـ تحصيل الأنس لزائر القدس، لابن هشام (ت٧٦١ هـ).

ز ـ كتاب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام (ت ٧٦٥ هـ).

ح ـ تسهيل المقاصد لزوار المساجد، لابن العماد المصري (ت ٨٠٨ هـ).
طـ ـ كتاب الروض المغرس في فضائل بيت المقدس، للحسيني (ت ٨٧٥ هـ).
ي ـ اتحاف الأخصّا بفضائل الأقصى، للسيوطي، (ت ٨٨٠ هـ).
ك ـ المستقصى في فضائل الأقصى، للعلمي (ت ٩٦٩ هـ).
وقد نشرت جميعها بين دفتي كتاب واحد بعنوان: «فضائل بيت المقدس» دراسة وتحقيق: الدكتور محمود ابراهيم، طـ ١ كويت ١٩٨٥ (منشورات معهد المخطوطات العربية).

(١١) حول هذه الأساطير، أنظر على سبيل المثال: المسعودي: **مروج الذهب، ومعادن الجوهر**، جـ ١، بيروت: ١٩٧٨، ص ٣٤٧ ـ ٣٥٢.

(١٢) ندوة التاريخ الإسلامي الوسيط، ص ٤٧ ـ ٤٩.

(١٣) عبد الحميد يونس: **دفاع عن الفولكلور**، القاهرة: ١٩٧٣، ص ٢١٦.

(١٤) انظر: جيمس فريزر، **الفولكلور في العهد القديم**، ترجمة نبيلة ابراهيم، جـ ١، القاهرة: ١٩٧٤، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧.

(١٥) معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٦٧.

(١٦) معجم البلدان، جـ ٥، ١٦٧.

(١٧) معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٦٧.

(١٨) انظر: ناصر خسرو: **سفر نامه**، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت: ١٩٧٠، ص ٦٤ ـ ٦٩.

(١٩) معجم البلدان، جـ٥، ص ١٦٧.

(٢٠) ابن عبد ربه، أحمد: **العقد الفريد**، المجلد الخامس، القاهرة: ١٩٤٠، ص ١٤٩.

(٢١) معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٦٧.

(٢٢) انظر: الواسطي، أبو بكر: **فضائل بيت المقدس**، تحقيق اسحق حسون، القدس: ١٩٧٩، ص٣٥٣.

(٢٣) ابن الجوزي، أبو الفرج: **مقدمة كتاب القصاص والمذكرين**، تحقيق قاسم السامرائي، الرياض: ١٩٨٣، ص ٣٤.

(٢٤) لمزيد من التفاصيل، أنظر: فؤاد ابراهيم عباس: معتقدات فلسطينية في دائرة الفولكلور: **بحث منشور في مجلة التراث الشعبي**، العراق: العدد ١، السنة ١٩٧٨، ص ٩٣ ـ ٩٧.

(٢٥) معتقدات فلسطينية في دائرة الفولكلور، ص ٩٥.

(٢٦) معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٦٨.

(٢٧) سفر نامه، ص ٦٤.

(٢٨) فضائل بيت المقدس، ص ٥٥، وأنظر أيضا: العقد الفريد، مجلد ٥، ص ١٤٩.

(٢٩) انظر أيضا: معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٦٨.

(٣٠) معجم البلدان، جـ٥، ص ١٧١.

(٣١) كراتشكوفسكي، أغناطيوس: **تاريخ الأدب الجغرافي**، جـ٢ ترجمة: صلاح الدين عثمان يوسف، القاهرة: ١٩٦٥، ص ٥٠٧.

(٣٢) ينبغي هنا التفريق بين الدين الرسمي أو الشرعي والمرتبط بالسلطة المركزية الحاكمة وبين الدين الشعبي (المعتقدات الدينية الشعبية) المرتبط بالمبالغات والخرافات والأوهام، والمضطهد سياسيا وشرعيا، وهذه ظاهرة أنثروبولوجية موجودة في معظم المجتمعات.

(٣٣) محمود ابراهيم (محقق): **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة**، الكويت: ١٩٨٥، ص ٧١، ومصادر النقل هناك.

(٣٤) فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، ص ٣٢٦.

(٣٥) **القصاص والمذكرين**، ص ١٥٣.

(٣٦) المقدسي، المطهر بن طاهر: **كتاب البدء والتاريخ**، جـ١، باريس: ١٩٠٣، ص٢.

(٣٧) لمزيد من التفاصيل، أنظر: الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم**، جـ١، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠، ص ٤٨٠ ـ ٤٩٥.

(٣٨) مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢١١ ـ ٢١٣، وليس هنا مجال تفنيد نسبة هذا الحديث، ولغته الركيكة الى الرسول عليه السلام.

(٣٩) أنظر: شوقي عبد الحكيم: الفولكلور والأساطير العربية، بيروت: ١٩٧٨، ص ٥٩ ـ ٦١، وقد ذكر المؤلف نقلا عن هيرودوت بأنه قال بأن هذا الطائر المقدس يظهر في مصر مرة واحدة، كل خمسمائة عام، وما أن يولد «فينيق» في أعماق الصحراء أي الجزيرة العربية حتى يطير مباشرة حاملا جثمان أبيه، ليحط على مذبح معبد هليوبوليس، وهنا تحرقه أعشاب المر، ويتم في احتفالات ضخمة هائلة تحشد لدفنه وتتم في جو جنائزي كبير، وبعد موت هذا الطائر الأسطوري فينيق أوبينو، من أهم الحوادث اللاهوتية في مصر، هناك أساطير أخرى، وردت في المصدر السابق، كما أن ثمة أساطير أخرى جديدة وردت في كتاب: عجائب المخلوقات للقزويني ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧. وفي الأساطير العبرية «أن طائر الفينيق طائر يعيش ألف سنة وبعد انتهائها ينبعث في عشه لهيب فيحرقه، لكن تبقى فيه بيضة يعاود منها فينيق الحياة (وفي رواية أخرى تتولد دودة من رماده ينبت لها في اليوم التالي أجنحة ثم تطير في اليوم الثالث) وأن هذه القيامة (التجدد) أعطيت لفينيق من عند الله، لأنه كان الطائر الذي شجب أكل حواء الثمرة المحرمة».

(٤٠) انظر على سبيل المثال:

محمد علي الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في الشام (خاصة ص ٤٠٦ ـ ٤٤٧)، القاهرة، ١٩٧٩.

أحمد أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (خاصة ص ٤٠٦ ـ ٤٤٧) القاهرة، ١٩٧٩.

عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٤٩.

محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، القاهرة، ١٩٦٨.

محمود ابراهيم: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني. بيروت، ١٩٧١.

(٤١) أنظر نص القصيدة: البوصيري، محمد بن سعيد: **ديوان البوصيري، تحقيق**: محمد سيد كيلاني، القاهرة: ١٩٥٥، ص ١٢٧ ـ ١٧١.

(٤٢) لمزيد من التفصيل أنظر: محمد رجب النجار: «أدب المقاومة في الابداع الشعبي العربي في عصر الحروب الصليبية والمماليكية»، **دراسة منشورة في بحوث ندوة القدس**، المنعقدة في الكويت في الفترة من ٢ ـ ٥ من أكتوبر ١٩٨٩.

(٤٣)محمد رجب النجار: «حكايات شعبية من فلسطين»، **دراسة منشورة في مجلة التراث الشعبي**، العراق: ١٩٨٤، من العدد التاسع، ص ١٣ ـ ٤٢، ص١٨٣ ـ ١٩٤.

(٤٤)أنظر على سبيل المثال أول حكاية شعبية في هذه المجموعة، على اعتبار أنها عينة عشوائية، وهي بعنوان «حدوته ملك الكرك» ص١ ـ ١٥ من مجموعة ليتمان،: **حكايات شعبية من فلسطين**، ليدن، هولندا: ١٩٠٥.

(٤٥) أنظر: يسرى جوهرية عرنيطة: **الفنون الشعبية في فلسطين**، بيروت ١٩٦٨، ص ١٨٢ ـ ١٨٦.

(٤٦) أنظر: نبيل علقم: **مدخل لدراسة الفولكلور**، القدس: البيرة، ١٩٧٧، ص ٩٧ ـ ١٠٢.

(٤٧) دفاع عن الفولكلور، ص ٢٢٢.

(٤٨) أنظر عى سبيل المثال بعض هذه الوقائع والأحداث في **سيرة عنترة بن شداد**، مجلد ٥، القاهرة: بدون تاريخ، ص ٢٣٦ ـ ٢٦١ (عن غدر اليهود بعنترة وهو الصراع الذي انتهى بسقوط حصن خيبر وانتصار عنترة).

(٤٩) مجهول المؤلف: **قصة الزير سالم**، القاهرة: بدون تاريخ، ص ٩٤ ـ ٩٨.

(٥٠) مجهول المؤلف: **سيرة بنى هلال الكبرى**، القاهرة: بدون تاريخ، ص ٣٦٦ ـ ٣٩٠.

(٥١) سيرة بنى هلال الكبرى، ص ٦٧٢ ـ ٦٨٤.

(٥٢) مجهول المؤلف: **تغريبة بنى هلال**، القاهرة: بدون تاريخ، ص ١٠٠ ـ ١٣٢.

(٥٣) دفاع عن الفولكلور ص ٢١٨ ـ ٢٢٢.

(٥٤) أنظر على سبيل المثال الكتب الآتية:

- أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، غسان كنفاني.
- أغانينا الشعبية، تمر سرحان.
- الأغنية الشعبية الفلسطينية، حسن الباش.
- أغاني العمل والعمال في فلسطين، علي الخليلي.
- الوجه النضالي للأغنية الشعبية الفلسطينية، حلمى الزواتي.
- الفنون الشعبية في فلسطين، يسرى جوهرية عرنيطة.

ومن البحوث، أنظر أيضا: شعر العامية الفلسطينية المقاوم ١٩١٧ - ١٩٦٧، حسني محمود حسين، مجلة التراث الشعبي، العراق، ع ٦ السنة ١٩٧٨ ص ٥ - ٤٦.